

قطوف

٢

الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب بالجماميز : ت ٤٣٣٧٧

[illegible]

[illegible]

بين الأدب والحرب

لا [illegible] أن الأدب العربي قد تأثر بالحروب [illegible]
[illegible] العرب [illegible] والعصور
[illegible] المعلقات وقبله في شكل الأغراض
[illegible] الحرب وأسلحتها وما يتصل بها [illegible]
[illegible] منها الكتاب الأدبي [illegible]
[illegible] الراقي [illegible]
[illegible] أولئك الأدب [illegible]
[illegible] العرب وقضى [illegible] وكيف أثر [illegible]
[illegible] واستساغ الكلام [illegible]
[illegible] أبواب الوصف والشعر
[illegible] والمديح والفخر [illegible] في الغزل [illegible]
[illegible] من أبواب الآداب
[illegible] الأدب العربي على أساس [illegible]
[illegible] كان في الأدب [illegible]
[illegible] بعد ذلك كلام [illegible]
[illegible] الشعر [illegible]

[illegible] الصبر والإسلام والتكلم في [illegible]
[illegible] وتأمل ما [illegible] وما [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

وقال : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » (١)

وقال : « والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين » (٢)

وقال : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » (٣) « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » (٤)

« يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » ... [illegible]

« إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » ... [illegible]

---

(١) [illegible] (٢) [illegible] (٣) [illegible]
(٤) [illegible] (٥) [illegible] (٦) [illegible]

يا أيها الذين آمنوا [illegible]

[illegible] (٣٧)

يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم

فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم

ولن يتركم أعمالكم .

ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو

أخباركم .

فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم

فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها

يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم

الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا

إلى فئة فقد باء بغضب من الله .

[illegible]

[illegible]

(١) [illegible] (٢) [illegible] (٣) [illegible]

[illegible] (1)

[illegible] إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين
[illegible] في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق
[illegible] منهم كل بنان (2)

[illegible] لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل
[illegible] بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى
[illegible]

[illegible]
[illegible] (3)

[illegible] ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم
[illegible] يا أيها الذين آمنوا [illegible]
[illegible] واتقوا الله لعلكم [illegible]

[illegible] اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم
[illegible] ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما
[illegible] (4) [illegible]

تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا (١) .

ونختم ما أوردنا من آي الجهاد بما وصف القرآن به خيول المجاهدين في الغارة ، قال جل مجده وتعالى ذكره : « والعاديات ضبحا (٢) فالموريات قدحا (٣) فالمغيرات صبحا (٤) فأثرن به نقعا (٥) فوسطن به جمعا (٦) » .

الله أكبر ! إنه بلاغة تتقطع دونها [illegible] ، وليت شعري هل يعدل كلام الله كلام !

في الشجاعة والإقدام

لا نستطيع أن ننتقل إلى ما قيل في الشجاعة والإقدام قبل أن نذكر شيئا عن نبي الأنام عليه الصلاة والسلام .

روى الإمام البخاري بسنده أن رجلا سأل البراء رضي الله عنه : أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه

(١) سورة الأحزاب . — (٢) العاديات : الخيل التي تعدو [illegible] صوت أنفاسها إذا عدت . — (٣) الموريات [illegible] لإخراج النار . والمراد ما يقدح من حوافرها . والقدح [illegible] (٤) المغيرات : [illegible] في الغارة . — (٥) النقع [illegible] الحرب . ويقال له أيضا : الرهج [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] يومئذ أحد أشد منه . إلى أن [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] قال : [illegible]

[illegible] برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب [illegible]

[illegible]

[illegible] أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا

[illegible] الشجاع هو الذي يقرب منه صلى الله عليه وسلم إذا دنا [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] أبي بن خلف حين افتدى يوم بدر : عندي فرس [illegible]

[illegible] من ذرة أقتلك عليها . فقال له النبي صلى الله عليه

وسلم : [illegible] أنا أقتلك إن شاء الله !

[illegible]

[illegible]

[illegible] من الحارث بن الصمة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] لا [illegible]

[illegible]

[illegible] على الحق [illegible]

[illegible] في قول [illegible]

ومن أبلغ ما قال الشعراء في الشجاعة قول العباس بن مرداس السلمي:

أشد على الكتيبة لا أبالي ... أحتفي كان فيها أم سواها

وقول المتنبي:

[illegible] كأن الحرب عاشقة له ... إذا زارها فدته بالخيل والرجل

وقول البحتري:

[illegible] تمسكت حلومهم الأر ... ض وكادت لولاهم أن تميدا

[illegible] الخطب جاء كانوا غيوثاً ... وإذا النقع ثار ثاروا أسودا

[illegible] الإله قال لهم في الـ ... ـحرب كونوا حجارة أو حديدا

وقول الآخر:

[illegible] ... في كل معترك حمر [illegible]

[illegible] ... [illegible]

[illegible] ... [illegible]

[illegible] ... [illegible]

قال أبو حاتم ... جماع الأشياء

... الجهاد والصبر على الشدائد

... أحسن ما قيل في فضل الجهاد ، والصبر على شدائده ، قول النبي صلى الله عليه وسلم : « الروحة والغدوة في سبيل الله أفضل من الدنيا وما فيها » ، « الجنة تحت ظلال السيوف » ، « والذي نفسي بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا ... ما أحملهم عليه ، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله . ... لوددت أني أقتل في سبيل الله ، ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل » .

... لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم صفين ، وقد قيل ... أتقاتل أهل الشام بالغداة ، وتظهر بالعشي في إزار ورداء ؟ ... والله ما أبالي أسقطت على الموت أم سقط الموت علي ... السيف أي عبداً . وقيل له : إن درعك لا ظهر لها ... إذا أمكنت عدوي من ظهري فلا أبقى !

... خالد بن الوليد عند موته : لقيت كذا وكذا زحفا ، ... إلا وفيه طعنة برمح ، أو ضربة بسيف ، أو رمية ... أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير ، فلا ...

وقال عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مصعب بالجاثليق [illegible]

[illegible] والله لا نموت حتفاً ولكن قعصاً

بأطراف الرماح وموتاً تحت ظلال السيوف [illegible]

[illegible] المهلب [illegible]

[illegible]

[illegible] بقول الحصين بن الحمام

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياةً مثل أن أتقدما

[illegible]

[illegible] قصيدة مشهورة منها [illegible]

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

نفلق هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

[illegible]

وقال جرير

[illegible]

[illegible] هل أنت [illegible]

وقال حبيب بن أوس الطائي [illegible]

فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخمصك الحشر

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر

[illegible] والحمد نسج ردائه فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر

تردى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر

[illegible] وقوا [illegible] الحوائب [illegible]

[illegible] العرب [illegible]

[illegible]

[illegible] وعد [illegible]

وقول الآخر

[illegible] كان المصلين بحضرة [illegible] وان لم يكن حجر وفوقا على حجر

[illegible] تفرج ابناء الكريهة بالصبر

[illegible]

[illegible] حيلتها [illegible]

[illegible]

[illegible] عن ساحته [illegible]

[illegible] طوال المتن تعصف الاعصار

[illegible] فكانها تحت الغبار غبار

[illegible]

[illegible] هكذا حجا بالصبر او قطرت دما

[illegible]

[illegible] واسيافنا [illegible]

[illegible]

[illegible] الروح [illegible]

[illegible] فإن لم تحمه يد فارس ... [illegible] وصقول [illegible]

[illegible] الوغى فالترس ليس بجنة ... من [illegible]

[illegible] حكم الرعي فإذا مضى ... [illegible]

وقول ابن المعتز :

[illegible] صارم فيه المنايا كوامن ... فما [illegible] إلا [illegible]

[illegible] مشتبه الفرند كأنه ... [illegible]

ومن أبدع ما قيل في [illegible] أبي تمام :

[illegible] الأرماح إذ [illegible] ... [illegible]

كأنها [illegible] في الأرواح [illegible] ... [illegible]

[illegible] أدق [illegible] بلا نظر ... إلى [illegible]

[illegible] كان [illegible] ملازمي ... فليس [illegible]

ومن أبدع ما قيل في الحرب ، قصيدة أبي تمام التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف ... في متونهن جلاء الشك والريب

وهي مشهورة ومنها :

[illegible] ... [illegible]

[illegible] ... [illegible]

[illegible] ... [illegible]

ضوء من النار والظلماء عاكفة ... وظلمة من دخان في ضحى شحب

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت ... والشمس واجبة من ذا ولم تجب

تصرح الدهر تصريح الغمام لها ... عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

في الجبن والفرار

ومن أحسن ما ورد في صفة الجبن، والتعيير بالفرار، [illegible] قول حسان بن ثابت، رضي الله عنه:

إن كنت كاذبة الذي حدثتني ... فنجوت منجى الحارث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة ولجام

وقال المتنبي:

يرى الجبناء أن الجبن حزم ... وتلك خديعة الطبع اللئيم

وقال آخر:

يفر جبان القوم عن أم نفسه ... ويحمي شجاع القوم من لا يناسبه

وقال آخر:

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم ... إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

وقال [illegible] يتحدث عن نفسه:

[illegible] قلت لها ... إن الشجاعة مقرون بها العطب

[illegible] الأعضاء [illegible] ... [illegible]

[illegible] أعتاقه [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

فلو كان لي رأسان أتلفت واحداً ولكن لي رأساً إذا زال أعقما

وقال مثله :

[illegible] إلى [illegible] فكيف [illegible]

وقيل لأعرابي : ألا تعرف القتال؟ فإن الله قد أمرك به . فقال : والله إني لأبغض الموت على فراشي ، فكيف أمضي إليه ركضاً؟

وقيل لزيد : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا [illegible] [illegible] فأنت للإقدام عليه أولى منه عليك . فقال : أخاف أن يكون قد سمع الحديث قبلي فأقع معه فيما أكره . وإنما الحرب خدعة .

وقالت عائشة رضي الله عنها : إن لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير ، كلما خفقت الريح خفقت معها . فأف للجبناء ، أف للجبناء !

[illegible] لغلام [illegible] القتال فقال له [illegible] من لقاء العدو ؟ قال : يابن أخي ، كيف يكونون لي عدواً ولم ألقهم قط ولا لقوني ؟

وقيل [illegible] الفرار فقال : لأن يقال [illegible] لعنه الله خير من أن يقال : قتل رحمه الله !

[illegible] أبقى الناس [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible]

ابن عمار لأبي حية جدثه فقال :

دخل ليلة إلى بيته كلب فظنه لصاً . فأشرفت عليه وقد انتضى سيفه (لعاب المنية) وهو واقف فى وسط الدار ، وهو يقول : أيها المغتر بنا ، المجترىء علينا ، بئس والله مااخترت لنفسك . خير قليل وسيف صقيل لعاب المنية الذى سمعت به ، مشهورة ضربته لاتخاف نبوته . أخرج بالعفو عنك ، قبل أن أدخل بالعقوبة عليك . إنى والله إن أدع قيساً إليك لا تقم لها ! وما قيس ؟ تملأ والله الفضاء خيلا ورجلا . سبحان الله ! ما أكثرها وأطيبها ! فبينما هو كذلك إذا الكلب قد خرج ، فقال : الحمد لله الذى مسخك كلباً ، وكفانى حرباً !

فى الغزل

ومن أجود ما أوصفت صور الحرب إلى الشعراء فى باب الغزل ما قال المتنبى :

يا بنت معتنق الفوارس فى الوغى ... لأبوك ثم أبر منك وأرحم !

وقال ابن هانىء الأندلسى :

فتكات لحظك أم سيوف أبيك ... وكؤوس خمر أم مراشف فيك ؟
أجلاد مرهفة وفتك محاجر ... لا أنت راحمة ولا أهلوك ؟
يا بنت ذى البرد الطويل نجاده ... أكذا يكون الحكم فى ناديك ؟

وقال الشاعر :

تمنى فصبحاً الله بينى وبينها ... عشية آرام الكناس رميم
رميم التى قالت لجارات بيتها ... ضمنت لكم ألا يزال يهيم

ألا رب يوم لو رمتنى رميتها ولكن عهدى بالنضال قديم

وقال عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

فهذه نماذج يسيرة جداً جداً إذا أضيفت إلى ماقيل فى الحرب وآلاتها وسائر أسبابها . على أنها ، فيما أرى كافية حق الكفاية فى الأبانة عن مبلغ ما أحدثت الحروب على الآداب .

وبعد ، فلقد قال السابقون فى الفوارس المعلمة ، والخيل المسومة والقس الموتورة ، والسهام المنصولة ، والقنا الخطية ، والسيوف الهندوانية ، كما قالوا فى خرف المقاليع ، ورمى المجانيق . وذلك كل ما شهدوا فى زمانهم ، وأدركوا من آلة حربهم وقتالهم . ومع هذا فقد أطالوا وأكثروا ، وأبدعوا فيما خيلوا وصوروا ، وانتظموا البديع من الفصيح ، وأتوا بالعاجيب من الصيغ . فضاعفوا ثروة العربية ، وأبعدوا آفاقها إلى غاية المدى .

فهل لنا أن ننتظر من كتابنا وشعرائنا اليوم مثل هذا ، وقد أبدع العلم للحرب ما أبدع ، مما لا يكاد يحصيه عد ، ما بين من زحافات فى [illegible] على متن الغبراء ، وغائصات فى جوف الماء ، وسابحات على وجه الدأماء . وقاذفات من اللهب [illegible] ومهلكات بالغازات الخانقة ، ورواميات بالقنابل الناسفة [illegible] ما أصاب العالم [illegible] ، من أهوال تشهد العالم أهوال القيامة .

عبرة العبر

هذه الشمس تطالع العالم بجفنيها من جانب الأفق . وما تلبث أن تسلل منه رويداً رويداً ، حتى يستوى إطارها على متنه . وما تزال فى خلال ذلك تضاعف ما ترسل على وجه الأرض من خيوطها العسجدية . وكذلك ما تزال تمطل فيها وتبسطها من الشرق إلى الغرب . وهكذا تظل تحبو فى مدرجها إلى قبة الفلك . وكلما خطت بالزمن خطوة ، رأيتها تشتد وتترعرع ، ويسطع ضوءها ، ويحمى وهجها إلى أن تبلغ الذروة وتستوى على أعلى الأوج .

وأنت خبير بأنه ليس بعد الصعود إلا الهبوط ، فهذه سنة الله تعالى فى كونه ، وكذلك تجرى سنته على هذا الكائن العظيم ، فليس بعجيب أن يدعو الفلكيون هذه اللحظة ، أعنى لحظة استواء الشمس فى أعلى الأوج بالزوال ، إذ كان بدء الزوال ، هو غاية الكمال !

وهذه الشمس تمشى إلى الغرب فى منحدرها كذلك رويداً رويداً ، كما تتداخلها الشيخوخة فالهرم رويداً رويداً ، حتى إذا كان اصفر لونها ، وبردت السن من جرمها ، جعلت تتدلى فى قبرها من مغرب الأفق مشتعلة متأنية ، وهكذا تغيب فى لحدها ، غير تاركة من [illegible] الشاحبة ، سرعان ما تختفى فى ظلمة

الظلام ، وقد تترك تراثها المعض على صفحة القمر ، يرفد العلم به بعض ليالى الشهر .

تلك سيرة الشمس كل يوم : ميلاد فترعرع ففتوة ، فشباب وقراهة وقوة ، وكهولة فشيخوخة فهرم ، فتدس فى النهاية تحت الرجم . وسبحان الحى الذى لا يموت !

على أنها فى جميع مراحل حياتها ، عاملة جادة جاهدة ، لا تنى عن السعى لحظة واحدة . فها هى ذى تستنبت الأرض ، وتزكى الزرع ، وتبسق الشجر وتنضج الثمر ، وتفتح من أكامه الزهر ، ثم ها هى فى عنفوانها ، ماتفتأ تجتذب البخار عذباً سائغاً من أجاج البحار[١] ، حتى إذا انعقد سحاباً ، سح فأخضل قفراً وأعشب يباباً وهذه الأنهار الجارية سموتها فى أقطار الأرض ، تبعث أسباب الحياة لكل شىء الحياة ، وكذلك لا تنس أنها ماتبرح تعمل عامة النهار ، فى تطهير الأرض مما يعلق بجسدها من الأخباث والأوضار فأى عنصر ، لعمرى ، من حياة هذا العالم يمكن أن يغنى عن الشمس ؟ ألا إنها لمصدر الحياة جميعاً : يحق للعالم أن يقول ، إنما الحياة الشمس وإنما الشمس الحياة !

---

(١) كان المعرى ، رحمة الله عليه ، لا يؤمن بهذه القضية . اشتقاق (العذب من أمواه البحار) ، فلا تراه يقول فى بعض شعره :

وقد يغشى حفل الغمام وإنما   من البحر ، فيما يزعم الناس ، يجتبى

كما يقول فى بعض رسائله . أو كالأمواه ، فمذهب لا أعتقده ، وقول سوقطامن يعد جمعه يجتذب أجزاء البحار ، فيسقى من تحته عذب الأمطار !

أيتها الشمس ! ما أحسنك وأجملك ، وما أطيبك وأكرمك ! تعملين لأول الدهر إلى غاية الدهر ، فى غير دنى ولا سأم ، ولا ضجر ولا برم ، ولا صلف ولا استعلاء ، ولا زهو ولا كبرياء . ولو شاء الله لأهلك بحرك بعض الأقوام ، ولو قد شاء لأهلك بطول حجبك جميع الأنام !

وبعد ، فما أخلق الذين يمسهم حظ من المجد فى هذه الدنيا والذين يمسون صدراً من السلطان فيها أن يتخذوا لسيرهم من سيرة هذه الشمس أعلى المثل . فيعملوا كل فى محيطه للنفع العام فى جد ودأب مؤمنين كل الإيمان أن الموهبة والسلطان إنما ينبغى أن يكونا ملكا خالصاً المجموع لا لأحد من الناس ولا لشىء من الأشياء .

على أن مما يفجع حقاً أن كثرة من هؤلاء الذين ينالون مجداً ويولون سلطاناً سواء أكان أقام من ثم لهم هذا فى جماعة أم فى شعب أم فى شعوب — سرعان ماينسون كل شىء لأن الأثرة قد ملكت من نفوسهم كل شىء . فنفوسهم هى المبدأ ، ونفوسهم هى الغاية . حتى إذا أجالوا الفكر فى منافع الجماعات ، فلا لأنهم يؤثرون هذه الجماعات نفعاً أو يبتغون لها خيراً ، بل لأنهم إنما يطلبون من هذا السعى مراماً لأنفسهم لا لشىء آخر ، وقد يكون هذا المرام فى أعف الصور هو إحراز المجد . أما ما يقع من خير المجموع ، أو ما يحتمل أن يقع ، فليس أكثر من طريق !

وكيفما كان الأمر ، فانه ما يكاد أحد هؤلاء يحس بجده ويستشعر سلطانه ، حتى يورم أنفه ، ويتداخله من الصلف المخيلة ما يملأ اعتقاداً بأن الرأى فى الأمر ليس إلا ما يرى هو ، وأن ماسواه لا صلاح له ولا خير فيه ، بل لقد يكون كله شرا وفساداً .

ولقد يشتد طغيان هذه الخلة على المرء ، فيرى أن الناس لا ينبغى أن ينظروا إلا بعينه ، ولا يسمعوا إلا بأذنه ، بل إنه ليرى أن من العبث الضار أن يجرى فكرهم بغير مايجرى به فكره ، وأن تنتهى آراؤهم على غير ما ينتهى إليه رأيه . فإذا خالفه امرؤ إلى غير هذا ، كان بين اثنين : إما ملتاث مخرق ، وإما معاند مكابر يجب أن يعجل له سوء العذاب !

وفى الحق أن أكثر من يغمرهم هذا الطغيان . إنما يرون مايرون ويفعلون مايفعلون عن ثبات إيمان ورسوخ اعتقاد !

وما ظنك بمن تطبعهم شدة الأثرة على الإيمان بأنهم مبعوثون من لدن رب السموات لإصلاح ما فسد فى رقعة من الأرض أو فى رقاع الأرض جميعاً ؟ فاليهم وحدهم عهد الله بالاضطلاع بهذا المهم وعليهم وحدهم تقع تبعة التقصير فى علاجه ، والتراخى فى إمضائه وإكمامه !

وهؤلاء لا يطلبون الأعوان والأنصار ليعاونوهم بصادق الرأى

وصالح المشورة ؛ ولكن ليملؤهم بقوة المظهر وإمضاء ماتقضى به الوحى الذى لا يخطىء أبداً !

فاذا تعاظمك ما يختلف على هذا الرأى من عصور العتو والطغيان تخرب العامر، وتدمر القائم، وتقفر الآهل، وتراق فيها الدماء بغير حساب، وتزهق النفوس لغير سبب من الأسباب ؛ إذا تعاظمك هذا فى عصور الدهر المتتابعة، فاعلم أن علته تلك الخلة الفاجرة فى الإنسان!

وأمسى . لقد أتمت دورة الشمس حولا سلكته فى عقد التاريخ أيضا، وآذنت العالم بفجر حول جديد .

وإن ذاك العام المدبر، وهذا العام المقبل، لهما — كما تعلم — من أعوام الهجرة، هجرة محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه من مكة إلى المدينة، وقد ساد بها الإسلام، فعمّ بسلطانه الأنام .

وبعد، فلست بحاجة إلى أن أحدثك عما كان قد غشي الأرض من ظلم وفساد، وتصدع فى النفوس، وتضعضع فى الاخلاق، حتى كاد يقضى على الأمم بعدم الصلاحية للبقاء . إلى أن بعث محمد من عند الله حقاً . فبلغ رسالته إلى الناس، كما أوحى إليه بها ربه حقاً، فكان ما شهد التاريخ من ذلك الفتح والاصلاح والاسعاد .

ولا أحب أن أطيل فى وصف ذلك الإصلاح والاسعاد فحسبهما أن تنزل بآياتهما وحى كريم . من عند الله العلى العظيم .

وإنما أقف برقعتى قصيرة عند سيرة من خلفوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤيد أحد منهم بوحى سماوى ولا حبى بالعصمة التى حبى بها الأنبياء ، إنما هم أناس مثل سائر الناس .

وإذا كان خلفاء الرسول قد ارتفعوا على سائر الناس فبأنهم إنما ساروا سيرة هذه الشمس التى تطالعهم كل صباح وتغرب عنهم كل مساء . على أنها هى تعمل لعالم الأحياء والأجرام . أما هم فيعملون لعالم النفوس والأرواح .

يعملون جادين جاهدين ، لا يبتغون من سعيهم نفعاً ، ولا يرقون من ورائه فخراً ولا ذكراً لأنهم أشد أمانةمن أن يقتطعوا لأنفسهم أو لذويهم شيئاً مما ينبغى أن يجرد كله للنفع العام .

يعملون لا مستبدين بالرأى ولا مستأثرين ، بل مشاورين مصغين مسرعين ، حتى إذا اتسق لهم الرأى الذى يرون فيه منفعة المجموع ، أسرعوا إلى إمضائه ولو جاء من أصغر الجميع .

أما رأى الجماعة ، فشرع عندهم مشروع وقضاء مبرم محتوم .

يعملون صادقين مخلصين لله وللنفع العام . لا كبر ولا مخيلة ، ولا استئثار بمنفعة من المنصب والجاه ، بل ليس عندهم إلا الإيثار والتواضع ، والرقة للضعفاء ، وهيهات أن يؤثروا أحداً على أحد إلا بطاعة الله وما قدم من الخير للمجموع .

ولعمرى ، لتلك أعلى صور الديموقراطية التى يحلم بها أجل الفلاسفة من قديم الزمان .

وإذا كان هؤلاء الخلفاء قد انعقد لهم أعظم المجد ، المجد الخالد على الدهر ، فلأنهم لم يريقوه ولم يسعوا إليه ، ولم يشغل هو جزءاً من نفوسهم جليلا ولا دقيقاً !

وبعد ، فلا أشك أن ما أصفاهم لطلب النفع العام ، وتجافى بهم عن الاستئثار حتى بالنفع الخاص ، هو طول الذكر بالموت ، وكيف لهم بنسيانه وهذه الشمس العظيمة ، باعثة الحياة والحركة فى العالم تموت كل يوم ، بمرأى منهم ، بعد أقوى الحياة ! ولكل شىء نهاية ولكل سائلة قرار !

وإذا كانت الشمس تعود كل يوم فتوالى سعيها فى النفع والتجديد والأحياء ، فان زعيما لن يعود بعد موته ، ولو لاصلاح ما عسى أن يكون قد أفسد وتعمير ما عسى أن يكون قد خرب . فما له ، بعد الموت ، بالأمر يدان !

هذا بعض ما يلهمه حديث الهجرة ، وإن فيه لعبرة .

اسعفوا التاريخ

ليت شعرى ، لو سألت ، بعد عشر سنين مثلا ، شابا ممن سيتضحهم العصر يومئذ، بل لو سألت اليوم شاباً ممن هم فى الثلاثين فما دون — أن يجلو عليك صورة من الحياة المصرية ، وأعنى حياة المدن قبل ثلاثين سنة فقط ، فكيف تراه يقول ؟

أخشى ألا يقول شيئاً قط ، لأنه لا يكاد يعرف منها شيئا قط !

لقد حالت الكثرة الكثيرة من أساليب حياتنا فى هذه المدة القصيرة بسرعة لا أحسبها كانت مما يدخل فى حساب مؤرخ ولا عالم اجتماعى ، ولا غير هذين من سائر المفكرين . وبحسب المرء منا أن يلتفت بالذاكرة إلى ما قبل أربعين سنة خلت أو ثلاثين ، ويقلبها فى نواحى حياتنا لترجع إليه بصفة قوم غير القوم ، وناس لا يكاد يربطهم شبه بهذا الناس !

لقد تغيرنا سريعاً جداً فى أخلاقنا ، وآدابنا ، وأسلوب سكناتنا وطعامنا ، ولبسنا ، وسمرنا ، ولهونا وغنائنا ، وزواجنا ، وأعراسنا ، ومآتمنا ، وسائر أسبابنا . فلم يبق ثابتاً من ذلك فينا إلا الأقل من القليل . ولاشك أنه كذلك فى طريق التطور والتحوير

. وكذلك تختفى من الوجود صورة أمة ، لتحل فى موضعها صورة أخرى ، إذا قدر لحياتنا قرار قريب .

وإذا كان « لكل سائلة قرار » كما يقول الهمام ، فلاشك فى أننا نسلك الآن برزخاً بين عيشين مختلفين أشد الاختلاف ، مفترقين أبلغ الافتراق ، عيشين لا يكاد يتسع التصور لأنهما لأمة واحدة ، وخاصة فى مثل هذا الزمن القصير !

وليس يتسع هذا المقام ، بالضرورة ، لاستقصاء كل ما تناوله التطور الشديد فى بلادنا ، ويكفينا أن نعرض الآن نموذجاً واحداً يصلح أن يكون مثلا للجميع .

كان نساء الطبقتين العليا والوسطى ، فى هذا العهد القريب ، لا يتدلين فى الطريق إلا مقنعات محجوبات أمنع حجاب . فللرأس غطاء ، وللوجه غطاء ، ولسائر الجوارح غطاء . بحيث لا يظهر منهن إلا العيون من خلال البراقع ، وأطراف البنان فى قبضهن على مصاريع الملاء .

وكانت هذه الأغطية تختلف باختلاف البيئات . فالسيدة أو الفتاة المتوسطة الحال . تتلفف في الملاءة الغالية نوعاً وقد تكون من الحرير (الكريشة) . وكيفما كان الأمر ، فهى تلبسها على زي خاص لا ترسلها كما ترسلها نساء الطبقة الدنيا . بل إنها لتضيق على مدار الخصر ، وتضفى على مادونه حتى الكعبين .

وأما قناع الوجه فالبرقع الأسود ، يرسل من أسفل الجبين إلى غاية الصدر ، ويحلى من وسط أعلاه بحلية من الذهب غالبا ، أو من

الفضة المموهة بالذهب أحياناً ، وتدعى هذه الحلية « عروسة» البرقع ولا حاجة إلى وصفها ، فلا يزال يضعها بعض « بنات البلد » .

وأما الطبقة « العثمانلى » فيتخذن ، فى العادة ، الحرير (الحبر) وأما الوجوه فيسترنها بقناع أبيض لا « عروسة » له ولا سواها من الحلى ، وربما وضعن بدل القناع « اليشمق » وهذا كان خاصاً بالطبقة الأرستقراطية جداً ، لايشركهن فيه غيرهن ، وربما اتخذ نساء الطبقة الوسطى الحرير (الحبر) إذا دعت بعض المناسبات كحضور الأعراس والزيارات ذات الخطر .

ولم يكن التجمل بالمساحيق وما يؤدى مؤداها إلا نادراً جداً. وأكثر مايكون ذلك فى الأعراس ونحوها . وكان الإفراط فيه والمداومة عليه معيباً ، وكانت السيدة التى تلزمه موضع حديث السيدات وإنكارهن ، وكثيراً مايتخذنها موضعاً للأسمار !

وكيفما كانت الحال ، فان هذا الضرب من التبهج (أعنى تلوين الوجوه) لم يكن ليؤذن به قط لفتاة ، بل لست أغلو إذا زعمت أنه كان منكراً من سيدة ليست ذات بعل . وإن فتاة تفعل هذا لهى حقيقة بارسال الألسن وذهاب الأقاويل ، وأقفال بيوت الأشراف فى وجهها ، وانقباض المجالس دونها ، وتحرجها بغشيانها !

والآن ، وبهذه السرعة السريعة ، لقد تجردنساء هاتين الطبقتين وفتياتهما من أرديتهن الخارجية جملة . ونضوا الأقنعة فلا قناع

ألبتة وقصرن الثياب ، وربما حسرن عن الأذرع ، حتى لقد يبلغ النظر أعلى الكتف وأسفلها جميعاً . ولست ترى هؤلياء ولا هؤلياء باديات فى الطرق إلا كذلك ، وأما صقل العـــوارض ودهانها بالمساحيق البيضاء وصبغ الشفاه بالأحمر القانى أو الأحمر الضارب إلى الصفرة ، فلقد أصبح هذا وأمسى من ضرورات السعى فى الطريق بل كاد يصبح ويمسى مما تعاب المرأة بتركه ، وتعير إذا هى تخلت عنه !

ولقد تصادفك البنت فى الطريق ، وهى لما تتجاوز الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، وقد صبغت شفتيها بالأحمر صبغاً ، ولا أقول دبغتهما دبغاً ! ولقد كثر ذلك وشاع وفشا حتى أضحى لا يلفت من الناس شيئاً من العجب ، وخاصة عند الناجمين الذين لم يشهدوا الأمهات والأخوات منذ بضع عشرات من الأعوام .

ولقد كان التيار جارفاً إلى حد أن سيدة لم تستطع أن تثبت فى طريقه أو تثبت ابنتها . وأن رجلا مهما يكن محافظاً شديد الحرص على التقاليد ، لم يستطع ان يملك عن جرف هـذا التيار امرأته أو فتاته . بل إن بروز المرأة اليوم فى الطريق ملففة مقنعة ، هو الذى يسترعى النظر وقد يستدعى العجب !

بل إنك لقد تجد فى طريقك السيدة وقد ذرفت على الستين أو طعنت فى السبعين ، أى ممن نشأن فى الحجاب ، وتوارين فى شتى الألفاف دهراً غير قصير . لقد تراهن اليوم سافرات الوجوه ،

مهيفات ما أبق المقص من شعر الرؤوس ، بارزات الأذرع والنحور ، مقصرات الثياب إلى ما يتجاوز أعلى السوق . وقد بالغن فى التبرج والتبذل بألوان الصبغ والدهان !

وأرجو من القارئ ألا يفهم أنى أسوق هذا الكلام على جهة الإنكار ، أو أنى أبغى وعظاً أو أطلب نصحاً . إنما أنا فى هذا الحديث مؤرخ واصف لا أكثر ولا أقل . أذكر ما كان فى بعض أسباب عيشنا من ثلاثين عاماً فقط ، وما صرنا إليه بعد هذه الأعوام . وصفوة القول أننا فى هذه المدة القصيرة جداً فى مراحل تحول الأمم قد تطورنا تطوراً شديداً ، وتغيرنا تغيراً كبيراً ، ومع هذا فإنه لم تستقر بنا الحال بعد إلى إقرار !

وبعد ، فلقد أصبح من الواجب الحتم ، والحال ما ذكرنا ، أن يشمر جماعة من مشيخة الكاتبين فى تسجيل هذا التاريخ القريب فى مدته ، وقد شهدوه وعاشوا فيه ، وعرفوا الجليل والدقيق من مظاهر الحياة فى إبانه ، وإلا عفت معالمه ، وعفت رسومه ، وعز على الناس بعد أربعين أو خمسين عاماً أن يلتمسوه ويتصوروه كاملا واضحاً لأنهم لا يجدون إليه السبيل .

ولقد قلت والقريب فى مدته ، لأنه أضحى بعيداً جداً فى شخصه وصورته . وقد أحضرنى هذا المعنى قول متمم بن نويرة فى أخيه مالك :

فلما تفرقنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

اللهم إن أخشى ما أخشاه أن تتهاون قرب العهد بهذا الصدر من

التاريخ الذى شهدنا أطرافه، فيصرفنا هذا التهاون عن تدوينه وتسجيله ووصف مظاهر الحياة المصرية فيه. ثم يلتفت إليه أبناؤنا أنفسهم، ولا أقول أحفادنا، فلا يصيبون فى التماسه وتعقله إلا عنتاً كثيراً!

هذا عصر محمد على الكبير وما تقدمه بقليل؛ ولا أمعن فى التاريخ متقهقراً إلى عهود المماليك، فالأيوبيين، فالفاطميين فمن قبلهم. أقول: لولا بعثة الحملة الفرنسية، ولولا المستر لين الانجليزى، ما عرفنا كثيراً من عادات الأجداد، بل ما عرفنا ماذا كانت تلبس الجدات!

إن إهمال التاريخ، لقرب العهد به، كثيراً ما يجنى على حقائق التاريخ، وخاصة إذا أعقبته رجات وطفرات كهذه الرجات والطفرات التى جازت بنا. وكادت تأتى على كل شىء من أخلاقنا وآدابنا وتقاليدنا وعاداتنا وسائر أسبابنا.

وإن من رحمة الله بهذا التاريخ القريب أن كان فيه «الفوتغراف» يسجل الصور، وأن قام فيه «الفونغراف» يسجل الأصوات، وأن شاعت فيه الصحافة فسجلت أهم الأحداث. على أن هذا كله لا يغنى عن التسجيل البيانى يصف ما أخطأته تلك الوسائل، ويتدسس إلى ما لا تسلكه من بواطن الأشياء.

أرجو أن يشمر بعض شيخة الكاتبين فى هذا، تفقيهاً لأبنائنا، ووصلاً بتاريخنا لا ينقطع على هذه الصورة، وتيسيراً لسعى المصلحين الاجتماعيين.

قبـــلة

قال لى صاحبى فى بعض حديثه عن خطبه : « ... لا أدرى أكانت أحلى قبلة أصبتها فى حياتى ، أم كانت أمر ماذقت فى هذه الحياة جميعا ؟ أكانت ألذ ماظفرت به من لذائذ الدنيا ، أم كانت أوجع ماأوجعنى وآلم مابرح بى من كل مالقيته من الآلام والبرح ؟ أكانت برداً على كبدى وسلاماً أم كانت لهباً وضراماً ؟

« لقد أصبت من جميع ألوان القبل التى يتهيأ للمرء أن يصيب ، قبلت الأم ، وقبلت الولد فى جميع حالاته ، وقبلت الزوجة وغير الزوجة . وقبلت الصديق آب من سفر مخوف بعيد . وقبلته وقد أبل من علة رجحت فيه كفة الموت على كفة الحياة . على أننى لم أجد لمذاق هذه القبلة نظيراً ، ولا لطعمها ، بين كل أولئك ، شبيهاً . هى غير أولئك كله ، ، وأشد وأعنف من أولئك جميعاً !

« لقد كانت قبلة طويلة ، استغرقت منى كل معاهد الحس ، واستهلكت كل مجامع الشعور ، حتى لو وخزونى بالإبر ، أو لذعونى بالنار ، وما شعرت بشىء ولا أحسست شيئاً !

« ثم لا أدرى ، بعد ذلك ، أبذلت فى هذه القبلة ما كان قد بقى من عصارة كبدى وحشاشة قلبى ، أم ترشفت بها ماعوضنى عما اعتصر من حشاشة قلبى ، وعصارة كبدى ؟

«ثم لا أدري، أهي التي شاعت في نفسي وملكتها من جميع أقطارها، أم أن نفسي هي التي استحالت، بشدة الوجد، قبلة من القبل؟

«ثم لا أدري أكنت أغذو بها حياة أم كنت أستمد منها الحياة؟»

«وسواء أكان الأمر هكذا أم هكذا، فلم تكن هناك نفس وقبلة، فلقد صارتا شيئاً واحداً، لك أن تسميه قبلة، ولك أن تدعوه نفساً!»

«يا لها من قبلة هائلة، ولو كانت أحلى ما التذ به إنسان في جميع هذا العالم!»

إلى هنا انتهى صاحبي من حديثه الموجع الأليم. وإذا كنت قد بدأت هذا الحديث من منتهاه، فاعذرني ياسيدي القارىء، فلقد أعداني صنيع قصاص هذا العصر، فكثرتهم إنما يبدأون القصة من وسطها أو من مآخيرها، ليبعثوا في قرائهم غريزة التشوق والاستشراف فأخذت في رواية هذا الحديث أخذهم، ونهجت نهجهم.

أما أول القصة، فإن لي صديقاً كريم المنزلة عندي، أعرف فيه رهافة الحس، ووضاءة النفس، وطيبة القلب، وشدة العطف، وهو شديد الكلف بأولاده، عظيم العطف عليهم، حتى لا يكاد ينتهي منتهاه في ذلك أحد، وهو لا يفتأ يدللهم، ويرفه بكل ما اتسع له الجهد عليهم، ويسلى بشتى الوسائل عنهم، وكثيراً ما يستخفه ذكرهم حتى في المجلس الجامع لمن يتحشم ومن لا يتحشم، فيروى

من أحاديث كبارهم ، ومن لغو صغارهم ، مايبالى أظن الناس به ولهاً وعطفا ، أم ظنوا به حمقا وسخفاً .

ولقد هاجر هذا صاحبي إلى الريف فيمن هاجروا فراراً بنفسهم ، أو على الصحيح ، فراراً بولدهم ، ثم انكفأ بهم إلى القاهرة بعد قضاء الأشهر الطويلة . ولقيته بعد مقفله ، فإذا هو هزيل مغبر الوجه ، فلم أشك فى أنه قد لحقته علة . فسألته عن حاله وما به ، فقص على القصة التي سمعت آخرها ، وهاك أولها:

قال صاحبي كان الله له : « هبطت القاهرة لألى بعض العمل . وتركت ولدى فى أتم خير وعافية ، فرحين بعيش الريف الذى لم يعرفوه من قبل . وقضيت فى مهبطى ليلتين اثنتين ثم عدت وقد حملت إليهم ما أقدرنى الله عليه من التحف والألطاف ، وكنت طول الطريق أتمثل لقاءهم ، ورؤيتهم فى هجرهم ومرجهم ، وماعسى أن أدخل من السرور عليهم . فأجد لذلك لذة لا تكاد تعد لها لذة .

على أنى ما كدت أن أتخطى عتبة البيت ، حتى رأيت جموداً لم آلفه ، ووجوما لا عهد لي به ، فهرولت إلى السلم . وما عرجت بعض الدرج حتى سمعت أنيناً مؤلماً يتخلله صراخ مزعج . فجعلت أطوي الدرج مثنى وثلاث ، ثم انتهيت إلى مبعث الصوت فاذا صغرى ابنتى هى التى تئن وهى التى تصرخ . وإذا من حولها بين باك ينشج نشيجاً عنيفاً ، وبين حاقن للبكاء إلا ما تنتضح به الجفون ، برغمه

من قطرات الدموع ، وبين واجم شديد الوجوم ، وبين متحير العينين من شدة الذعر والهلع !

فسألت فى جزع ولهفة عن الخبر ، فأجابنى من قوى على الكلام منهم : لقد شعرت الفتاة فجأة فى أصيل أمس بآلام شديدة فى الجنب الأيمن ، فظن بادىء الرأى أن ذلك من أثر برد ، وعلى ذلك عولجت بالعلاجات المنزلية المعروفة ، حتى إذا تقدم الليل واشتدت عليها الآلام جئنا من الحاضرة بفلان ، وهو طبيب مشهور ، فظل يعالجها ويحاول تخفيف آلامها ، حتى انجلى عمود الصبيح ، ولم تخب البرح ولا خفت الآلام !

ورأيت المسكينة لا تطيق أن تسكن إلى وضع من الأوضاع ، فهى تسأل أن يجلسوها . فما تكاد تجلس حتى تصرخ . وتسأل إرقادها على الجنب الأيمن ، وسرعان ماتصرخ ، سائلة إرقادها على الأيسر وهكذا ! وهى كلما أنـّت أحسست كبدى تذوب شعبة بعد شعبة ، ويتقطر سلاؤها قطرة بعد قطرة . فاذا صرخت أحسست قلبى يتوثب فى صدرى ، كأنه كرة تتقاذفها الصبية .

وهى تفتأ تستغيث بمن حولها واحداً بعد واحد ، كأنها تظن أنهم قادرون على أن يرحموها بما تجد ، ويدفعوا عنها هذا العذاب الأليم ! وإنها لتستنجد بى ، فإذا بى أضرع إلى الله تعالى ، وأسأله أن يحول مابها إلى ، ثم أسرع فأستعيذ به تعالى من نزغ الشيطان .

فالله أكرم ، وأبر وأرحم ، من ألا يدفع الأذى عن عبد من عبيده إلا إذا قذف به عبد آخر ، وأستغفر الله العظيم !

وتفترق جمهرة الأطباء الذين اختلفوا إليه . فمن قائل إنه التهاب في المصير الأعور [١] ، ومن ذاهب إلى أنه مغص في الكلية . ومن حائر متردد لا يقطع برأى ولا يرجح شيئا !

واطمئن إلى الرأى الثانى ، طوعاً لما قيل : إنه لو كان ثمة التهاب في المصير ، لظهر من أعراضه كيت وكيت ، وشىء من ذلك لم يظهر ألبتة .

وتعالج على هذا أياماً ، وهى لا تزداد إلا برحاً وآلاماً .

وفى ذات ليلة من ليالى آخر الشهر سوداء فاحمة قد اشتد بردها ، وللريح عزيف يزعج ويروع ، أسر فى الطبيب بأن لا بد من نقلها فى الحال إلى الحاضرة ، لادخالها المستشفى ، فالأمر حق خطير ، إذ لم يبق عنده ، ما جد من الأعراض الحادة ، أى شك فى صحة الرأى الأول . وأقول له : أليس فى نقلها فى مثل هذه الساعة ، وهى على هذه الحال ، وفى مثل هذا الجو ، وقطعها أكثر من اثنى عشر كيلو متراً مجازفة ؟ فأجاب : لاشك أنها مجازفه خطيرة ، ولكن مبيتها هنا أشد خطراً !

---

(١) المصير : واحد المصران بضم الميم . وجمع الجمع مصارين بالفتح .

وماذا عسى أن أصنع ، يارب ، غير أن أطيع ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وأعد الذاهبون بها والذاهبات من الأهل عدتهم وجهزوا متاعهم ولم يبق إلا أن تحمل الفتاة المعذبة المذعورة إلى السيارة .

وحين أذّن المؤذن بالرحيل ، تغايرت فى نفسى فنون من أعنف العواطف ، منها ما ينطف رقة ورحمة ، ويترقرق جوى وإشفاقاً ، ومنها مايشق الصدر من الأسى شقاً ، ويدق المتن من الجزع دقاً ، ومنها مايتنظر لى بصور وأشباح تطير الألباب ، وتمزق الفكر ، وتفقد الصواب أرسخ ذوى الصواب !

جمعت شملى ، وشددت ، على التحطم ، عزمى ، حتى ثنيت على السرير صدرى ، وقبلتها قبلة التوديع المهول . اهـ

وإنما يعنى صاحبي تلك القبلة التى وصفها ، أو التى عجز عن وصفها ، وقد قدمت هذا الوصف فى صدر الحديث .

فاللهم يامن أذكى فى الصدور حب الأبناء إلى هذا القدر ، ووكد الرقة لهم فى الكبود كل هذا التركيب ، إرحم بفضلك الوالدين فانك أنت الرحمن الرحيم .

مأساة

قال لى صاحبي وهو فى بعض حديثه :

. . . ولم يكن سيد عشيرته فحسب ، بل لقد كان زعيم الاقليم كله ، وكان رحمه الله ، ألمعياً شديد الفطنة ، بعيد النظر ، صادق الحكم . يظل القوم فى مجلسه يتحاورون ويتناقشون ويتنازعون ، حتى إذا فرغوا من شأنهم جلى موضع النزاع فى يسر ، وحكم فيه أعدل حكم .

على أنه كان عصبياً شديد العصبية ، إلا أنه كان قادراً على أن يأخذ نفسه بالحلم فلا يستفزه شىء . بل لقد كان يضحك أو يتضاحك عما يغيظ أحكم الحكماء ، ولعل ذهنه كان يزخر بالمعانى ، فاذا أراد الحديث تزاحمت على لسانه ، فجعل يضطرب بينها ويتردد حتى مايكاد يبين !

وداره واسعة متعددة الأبنية ، وهى تقع فى حديقة واسعة جداً ، وهذه الدار لا تخلو مطلقاً من عشرات الناس فى ليل أونهار . فمن طالب رفد ، ومن صاحب حاجة تدعو إلى قوة المسعى . ومن متنازعين على مال أو على منصب يختصمان إليه . وجميعهم يأكل أحسن الطعام إذا جاء وقت الطعام . ومن طلب منهم المنام فله ذلك . فالدار كما

قلت واسعة والفرش فيها كثيرة. وهى، على الجملة، كرحبة مالك
ابن طوق ظلت مضرب الأمثال من قديم الزمان. وما طالعت هذه
الدار، إلا حضرنى قول مسلم بن الوليد فى بعض ممدوحيه :

لا يرحلُ الناسُ إلا نحو حجرته . كالبيت يفضى إليه ملتقى السبل

وأما حكمه بين الخصوم فهو أمضى من أى حكم نهائى تصدره
أية محكمة. لأن الخصوم فى ذلك قد يعوقون التنفيذ بشتى الحيل.
أما حكمه هو فلا تعويق فيه ولا احتيال، لأن أحداً فى الاقليم
لا يجرؤ على أن يسر لهذا الرجل عداوة، فضلا عن أن يصارح بها؛
بل إن أحداً لا يرضى لنفسه أن يسوء رأى هذا الرجل العظيم فيه.

وكان يؤثرنى ويحبنى ويعطف على عطفاً عزانى عن فقد الأب أحسن
العزاء. ولا يرضى فراقى له إلا مكرهاً. ولولا أننى رجل موظف
فى الحكومة يؤذينى فى رزقى انقطاعى عن عملى لأمسكنى، على
الدهر، ولم يرسلنى أبداً، فاذا طال إبطائى عنه فى القاهرة بعث
من يستدرجنى إليه بشتى الوسائل.

وقد بدا لى أنه لا بد كان يلاحظنى وأنا على طعامه لأننى رأيت
أنه كلما استطبتُ ألواناً من ألوان الطعام فأكثرت الاصابة منه، قرب
إلى فى اليوم الثانى هذا اللون نفسه، فاذا هو أطيب وأجود. وهكذا
حتى يلاحظ إعراضى عنه وإقبالى على غيره.

أحببته أكثر مما أحبنى أو مثل ما أحبنى، فانى أشك فى أن
حبه لى وعطفه على مما يحتمل المزيد! . .

وفى يوم أسود رجعت من عملى بعد الظهر. وما أن بلغت الدار حتى تقدمت باعداد غدائى . وكنت جائعاً متعباً . وفيما أنا فى الانتظار إذ رن جرس التليفون ، وإذا الآذان بأن الحديث من بلدة كذا، وإذا المتحدث أكبر أولاده . قال فى سرعة : إحضر يافلان حالا ، فوالدى فى حال شديد جداً ، بحيث لايجرؤ أحد على كلامه أو الدنو منه . فلعلك أنت ، لوضعك منه ، الذى يستطيع أن يستدرجه لحديث وأرجو أن تفرج عنه بعض الفرج . فقلت له : ما الخبر ويحك ؟ فقال : إن فلانة ، يعنى صغرى إخوته جميعاً ، قد غابت وانقطع الخبر عنها من ثلاثة أيام . ولم يجد البحث والتفتيش وقلب البلاد ظهراً لبطن فى طلبها فتيلا . فهتفت من فورى بأهل الدار أن يمسكوا عن إعداد الطعام ويعدوا حالا جعبة السفر ، وأرسلت فى طلب سيارة أبلغتنى المحطة فى آخر لحظة ، وتدليت هناك فاذا سيارة الباشا فى انتظارى ، وبلغت الدار . وما كدت أطلع على الحديقة حتى تعاظمنى منظر هذه الجماهير من النـاس ، شغلت كل رقعة ، واحتلت ظل كل شجرة ، وجزت إلى فناء الدار فاذا خلق كثير جداً ، وكلهم جالس مطرق لاينبس أحد منهم بكلمة ، وقد اغبرت الوجوه جميعاً ، والباشا جالس على طرف دكة لايشغلها معه أحد . فلما طلعت على المجلس أومأ إلىّ أن أجلس بجانبه ، فجلست ، وماسلمت عليه ولا هو حيانى ، وأطرقت كما أطرق سائر الناس .

ولقد قلت لك إنه ساكت لا يتكلم ، ولكنه كان فى كل فترة

بوقر وزفرة حرى، لقد كانت ولا شك بخاراً من لهيب يتسعر فى الأحشاء. وجلسنا على هذا يومين، وفى الصباح الباكر لليوم الثالث أومأ إلى بأن أسافر، فنزلت على إشارته، ورجعت إلى القاهرة لآتى على فيها، ولم أتردد لحظة واحدة فى الفكرة التى اعترتنى من اللحظة الأولى، هذه الفكرة التى يوحى بها أبسط واجبات الحب والولاء وعرفان الجميل لهذا الرجل العظيم: وتلك أن أطلب إجازة طويلة أقضيها فى التقلب فى البلاد، باحثاً مفتشاً منقباً عن بنته العزيزة. ولو دعا الأمر إلى التنكر والاضطراب فى مختلف الأزياء. ولقد اشتد بى الوجد مما دهى صديقى العزيز، وقد علت به السن وتشرف على نهاية العمر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم!

وقبل أن أسترسل إلى غاية هذا الحديث أصف لك وصفاً موجزاً هذه البنت المختفية من بضعة أيام:

لقد كانت سنها بين الرابعة والخامسة، حلوة جميلة جداً، بيضاء الجسم ذهبية الشعر، بالغة غاية الأناقة فى ثوبها الغالى الثمين. تراها فتخالها دمية فرت من معرض نماذج (فترينة) لغالى الثياب. خفيفة الروح حلوة الحديث، وخاصة إذا عادت ما يلقى عليها من كلام خيالى يراد به الاطراف والاضحاك. ولى معها فى هذا مواقف كلها ضحك وإغراب! وكانت لذلك تتعلق بى كلما هبطتُ إلى دارهم. وكنت أحبها كحب ولدى الأعزين. وكانت قرة عين لأبيها، وناهيك بأصغر الأولاد، وخاصة إذا كانت مثل هذه الدرة فى الحلاوة والنقاء.

هبطت القاهرة ، وقد جمعت النية الصادقة الماضية على ما أسلفت عليك ، وسألت الاجازة لشهر ونصف الشهر . ومضى يومان وأنا فى انتظار الاذن لى فيها ، على أننى أوالى السؤال بالتليفون كل ساعة ، فاذا مصير البنية مايزال فى الغيب المحجوب . وإذا والدها المسكين على حاله ، ولم يزل يعانى فى ذلك العذاب المضنى الأليم .

وانقلبت إلى الدار فى اليوم الثالث قافلا من عملى ، وتقدمت باعداد غدائى ، فاذا جرس التليفون يرن وإذا ولد صاحبى يدعونى ، فى فرح ظاهر أن أحضر لأهنئ أباه الشيخ ، فلقد عثر على أخته فلانة ، والحمد لله . فقلت مسرعاً وكيف عثر عليها ، وأنى كان ذلك؟ قال : لقد أمر وزير الأشغال ، حين انتهى إليه احتمال غرقها ، بتجفيف بحر (كذا) . وكذلك ألفينا جثتها فى الموضع الفلانى (وهو يقع على بضعة أميال من الدار) . وقد أكرمها الله تعالى . فلم ينل من جسمانها السمك كثيراً ولا قليلا .

وأسرعت باعداد جعبة السفر ، وخففت إلى لقاء صاحبى فاذا جموع كثيرة ، تلغو وتتقاول ، فى مرح واغتباط . وإذا صاحبى يظهر عليه طيب النفس وانبساط أسارير الوجه . ولم يكد يرانى حتى خف للقائى فى بعض طريقى إليه . وما أن توافقنا حتى عانقنى وجعل يقبلنى وجعلت أقبله وأنا أشعر أن الدنيا لا تكاد تسعه من سرور ومراح !

ثم جعل يحدثنى ، كعادته ، أحاديث هذه الدنيا ، حتى إذا انصرف الناس من مجلسه ، قافلين إلى ديارهم أو ثاوين ، فى داره ،

إلى فرشهم؛ وحينئذ جذبنى إلى حجرة جلوسه الخاصة، ودعا بالنرد، ورحنا نتلاعب به إلى ما بعد انتصاف الليل، وهو كلما انتهى دست يقبل على بحديث طريف، على أنه لا يلم بشىء من حديث بنته الغرقى لا من قريب ولا من بعيد!

الله أكبر! الله أكبر! إذاً لم يكن هذا الوجه كله، ولا هذا الوله المرعب المهول من أن البنت قد أدركها الغرق أو أنها ماتت على أى شكل من الأشكال. وإنما الجزع كله من أن تعيش فى ولاية خاطف مجرم من النساء أو الرجال!

ترى ماذا عسى أن يكون مصير الفتاة؟

هنا تتطاير أشأم الظنون كل مطار. وهنا يغلى صدر هذا الطود غليان القدر، حتى لتكاد تتصدع الأضلاع، لولا ما كان يروح عنها من ذلك الزفير، تتنفس به نار السعير!

لقد أصابها منية. وإذاً لقد سلم الشرف، وحبه، فالشرف هو كل شىء فى هذه الحياة!

أكرمك الله، ياحبيبى، ميتاً، كما أكرمك حياً. وأمتعك بملاعبة ابنتك الحلوة فى دار النعيم.

وهنا جعل صاحبى يبكى وينشج حتى لم يعد يقوى على كلام. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وإنا لله وإنا إليه راجعون!

مسألة

نحن ضعاف ، ما فى هذا شك . والغربيون أقوياء ، وما فى هذا شك أيضاً . وإنا لنبغى أن يكون لنا مثل حظهم ، أو جليل من حظهم من القوة والعظمة ، ولكن كيف السبيل ؟ اللهم إن السبيل واضحة لا عوج فيها ولا أود . هى أن نأخذ إخذهم ، ونسعى سعيهم ، ونحذو فى وسائل الحياة حذوهم . وبذلك نبلغ كثيراً مما بلغوا إذا لم يقدر لنا أن نصبح مثلهم . وأرانا ، بحمد الله ، فاعلين ، بل أرانا فى هذا جادين جاهدين . ها نحن أولاء نتعلم علومهم ، وننقل فنونهم ، ونتروى ما تنتضح به قرائحهم فى آدابهم ، ونمرن أيدينا فى تقليد صناعاتهم . وننهج فى تجارتنا نهجهم ، نستن فى أسبابنا المالية والاقتصادية سبلهم ، ونطبع جيشنا على غرار جيشهم ، ونعد من آلات الحرب ما يعدون لأنفسهم ، ونجرى فى أنظمة الحكم وسياسة الجماعة على طرائقهم ، ونشيد دورنا على طرز دورهم ، ونتخذ لها من الأثاث كل جديد من أثاثهم ، ونتزى بأزيائهم ، ونتخلق بأخلاقهم ، ونتأدب بآدابهم ، ونصطنع عاداتهم ، ونفكر على أساليب تفكيرهم ، ونسلك فى فنون التقدم مسالكهم والخلاصة ، أننا بتنا نقلدهم فى كل كبير وصغير ، ونترسم أثرهم فى كل دقيق وجليل

لا نستثنى على هذا إلا بعض ماتحتمه علينا قواعد ديننا فى زواجنا وطلاقنا ، وما إلى ذلك من أسبابنا ، وإلا مالا تزال تمسك علينا العادات المستأصلة من آلاف السنين ، حتى كادت بذلك تتصل بالخلق ، وتلصق بالطبع . على أنها فى طريق التحول والنصول ، ولا بد لها يوماً أن تحول .

نحن صائرون إلى حياة غربية لا شك فيها . وما لم نأخذه منها لنفعه ، ونحاكيه ابتغاء ثمرته ، أخذناه جرياً على سنة الطبيعية فى تقليد الضعفاء للاقوياء ، ومحاكاتهم — بظهر الغيب — لهم دون تمييز بين ماينفع وما يضر ، ولا نقد لما يسنونه مما يسر .

نحن صائرون فى عامة أمورنا إلى هذا العيش ، مالنا إلى غير ذلك حيلة ، وإن شئت قلت مالنا من ذلك بد ! على أن هنا أمراً جليل الخطر ، أو على الأدق من أجل الأمور خطرا ، قدسقط فى هذه الوثبة من حسابنا ، وأخشى إذا هو تخلف أن تكون مشيتنا فى حضارتنا الجديدة عرجاء ، وكيف للأعرج بمسايرة المغذين الأقوياء ؟

فقد رأيت أن كل عناصر الحياة عندنا غربى خالص ، اللهم إلا عنصراً واحداً لا غناء عنه ولا سداد بدونه . ومن ينكر أن اللغة من مقومات حياة الأمم ، فهو كمن ينكر الشمس فى وضح النهار كما يقولون !

كل صعب من أسبابنا أضحى غريباً ، وما لم يستغرب بعد فهو

ولا مراء فى طريق الاستغراب ، اللهم خلا اللغة ، فلغتنا مابرحت العربية التى تحدث بها الجاهليون من آلاف السنين !

إذاً ، أبات علينا لكى يتسق أمرنا ، ويستقيم منطقنا ، أن ننضو عنا لغتنا ، كما ينضى الثواب الخليق ، ونتخذ للساننا لغةغربية تستطيع أن تحيا مع هذا العيش الجديد ؟

لست ، علم الله ، أمازح ولا أعابث . فان المقام من الجدالذى لا يحتمل العبث ولا المزاح !

هناك علوم تستعب جميع سبل الحياة . وهناك فنون منها مايتصل بصلب العيش ، ومنها مايسمى للتسلية والترفيه والتنعيم وهناك آلات وعدد ، وهناك مصنوعات لايملكها عدو ، وهناك مالا يحصى من المستحدثات التى أصبح لا غنى عنها للناس ، أستغفر الله ، فانما أعنى المتحضرين من الناس لاغنى لهم عنها فى قضاء لباناتهم وتناول جميع أسبابهم .

وهذه العلوم والفنون ، وهذه الآلات والعدد ، وهذه المستحدثات التى لا غنى عنها لأحد ، هذه كلها أصبح طلبها والتفقه فيها وتجويدها كما يجودها أهلها هو همنا وشغل نفوسنا ومرامنا الأقصى ، ومثلنا الأعلى فكيف لنا بها ولغتنا لا تحيط بها ، بل لا تكاد تلم منها بكثير ولا بقليل ؟

لقد كانت لغتنا لغة العلوم والفنون التى جاءت بها حضارتنا ،

فلما عفى الزمان على هذه الحضارة عفى على اللغة كما أتى على تلك العلوم والفنون . ونحن الآن إنما نطلبه علوما جديدة ، وفنونا حديثة ، ومبتكرات طريفة . ولكل منها فى الافرنجية اسم ، ولكل منها تعبير يؤديه فى غير عسر ولا التواء . فكيف لنا بهذا كله ولغتنا ، كما عرفت ، فى هذا التقلص والانقباض ؟

لابد لنا من تناول العلم والفن ، ومن تناول وسائل الرقى والقوة والعظمة جميعا . وتناول هذا فى غير لغة ضرب من المحال ، وتناوله فى لغة قاصرة من معضل الأشكال !

وهنا تنصدع الآراء ، وتفترق الطرق : فقوم منا يذهبون إلى أخذ العلوم والفنون وسائر حاجات الحضارة فى لغاها ، وتناولها فى أسمائها المعروفة ومصطلحاتها المقسومة فى تلك اللغى حرصا على سلامة العلوم والفنون ، واختصاراً الزمن ، وتوثيقاً للصلات بيننا وبين ينابيع الحضارة فى بلاد الغربيين . وأرفق هؤلاء من يقولون بالتعريب فى كل شىء ، حتى فيما له تعبير عربى قديم !

ويخالف هؤلاء آخرون إلى وجوب تناول كل شىء بالعربية الصميمة لا أثر فيها لأى استعجام مهما يكن المعنى مما لا عهد للعربية به فى يوم من الأيام .

ينبغى أن يكون كل شىء عربياً مخلصاً . فاذا كان بين أصحاب هذا الرأى مسرف فى المرونة والترخص رضى بأن يصار إلى التعريب

إذا عيت وسائل العربية جميعا بإصابة المعنى المطلوب . وهيهات أن تعيا فى ظن الأكثرين .

وهؤلاء إنما يذهبون هذا المذهب ، ويتشددون هذا التشدد إيمانا منهم بأن اللغة من أقوى مقومات الأمة، ومن أخص مشخصاتها فإذا هى حالت ذهبت الأمة ولم يبق لها بين سائر الأمم كيان . ولإذا كانت الأفرنجية هى لغة العلوم والفنون وسائر أسباب الحضارة ، ولم يبق للعربية إلا تناول التافه فى الأسباب الدائرة بين الناس ، فقل العفاء والسلام ، على لغة القرآن ، لغة الإسلام ! وعلى الجملة ، فإننا لو ذهبنا مذهب أولئك المعربين لأضحت لغتنا والمالطية بمنزلة سواء ، والعياذ بالله !

فى العلوم والفنون والمستحدثات من مختلف الأشياء ، وللنبات والأزهار مئات الآلاف من الأسماء والصيغ والمصطلحات فإذا نحن عربنا هذا كله طغى أشد الطغيان على سائر اللغة . وأنت خبير بأن مايدور من صيغ العربية على ألسنة فصحاء الخطباء ، وأقلام بلغاء الكتاب، وما يتحدث به الخاصة فى مجالسهم، ويجرى فى مقاولاتهم ومحاوراتهم ، وماتنتضح به رسائلهم — كل ذلك لايزيد على بضعة آلاف . وكيف لهذا بأن يقوم بإزاء ذاك ؟ بل كيف له بأن يعيش بجانبه ، ويحقق ماتحقق اللغات لها من كيان ؟

هذه هي المسئلة كما يقول شكسبير ، فليت شعري ماذا يكون المصير ، فاللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير .

كيف كان الشباب يُزوَّجون

١

أسوق حديثي هذه المرة عن الخطبة والزواج في مصر إلى شيوخ الجيل الماضي . ولقد أعرض عليك صوراً مما برح بعضها قائماً إلى الآن ، وبعضها وإن اختفى فإنه ما زال متمثلا للأذهان . وذلك أني أحب أن أعرض مجموعة كاملة واضحة من صور الخطبة والزواج قبل أن تحول أو تعتريها الأيام بالنصول .

وترانى في ترجمة هذا الحديث قد عبرت بصيغة البناء للمفعول ، فقلت : « كيف كان الشباب يزوجون » ، ولم أقل : « كيف كانوا يتزوجون » . وإنى لأقصد هذا وأعنيه ، لأن الشباب لم يكونوا يتزوجون ، وإنما كانوا يزوجون ، لا رأى للشاب أو للفتى في متى يتزوج ، ولا كيف يتزوج ، ولا بمن يتزوج . وإنما يزوجه أولياؤه فيتزوج ، وكان الله يحب المحسنين !

كان الزواج مرحلة من مراحل الحياة لا بد للشاب منها ، مهما تكن الأحوال . كان شيئاً لا بد منه ، ولا محيص عنه ، اللهم إلا لنقص داخل على الخلقة ، وهذا من النادر الذي لا يجرى على سياقه الحكم العام .

فإذا ترعرع الفتى وبلغ الحلم ، جعل أهله يفكرون في أمر تزويجه وأكثر هؤلاء هماً بذلك وجديناً فيه وتدبيراً له هو أمه . تنادى به أباه ، ولا تنى عن مراجعته فيه . والالحاح عليه في التعجيل

به وكلما اعتل عليها بعلة، أو أنهض لها فى التأخير عذراً ، هونت عليه الصعب ، ويسرت له العسير. فاذا كان العذر فى قلة المال ،وكان هذا هو أبلغ الأعذار وأشيعها ، عرضت بيع أعلاقها وحليها ، فاذا لم يكن فيها غناء ، ففى بيع «حصة» من البيت ، أو فى الاقتراض غناء!

تريد الأم أن «تفرح» بولدها وتزوجه من أى سبيل . وهنا ينبغى أن تعلم على جهة اليقين أن تعلُّم الولد أو انقطاعه عن الدرس أو نجاحه فى أى ميدان من ميادين الحياة ، أو فشله ، أو اشتغاله بأى عمل من الأعمال ، أو تفرغه أو تبطله — إعلم أن شيئاً من هذا لا يدخل ، ولا يجوز أن يدخل فى حساب تزويجه ، أو يقام له أى وزن فى هذا الباب . ذلك بأن تزويج الشاب أو الفتى ، كما أسلفت عليك ، مرحلة لابد منها فى اجتياز مراحل الحياة !

ولعل أهم ما كان يسهل أمر زواجه على والديه ، أن الزوجة لاتكاد تجشم أولياءه شيئاً من النفقة ، فهى تسكن فى دارهم ، وتأكل مما يأكلون منه ، وتشرب مما يشربون . فإذا كانت مطالع الأعياد جيئت بكسوة لا تُعيي على رب الدار فى كثير ولا فى قليل !

وكيفما كان الأمر ، فاننا إذا استثنينا مهر العروس وما إليه من الهدايا والألطاف ، وإذا استثنينا معه نفقات العرس وأسبابه ، فان هذا الضيف الجديد لايجشم وظيفة دائمة ، ولا نفقة راتبة ، أو على التعبير الافرنجى ، لا يكلف أى consommation

ولاتنس ، مع ذلك ، أنها ستقوم بنصيب جليل فى خدمة الدار ،

إن لم تستقل بها جميعاً : كالعجن والخبز ، والطبخ وغسل الثياب ، وجدرتها، وكنس الدار ، ونفض الأثاث ، وصنع القهوة وتقديمها للضيفات الخ . . .

وقد يكون من قسمها أيضاً القيام على خدمة الصغار من أخوة الزوج وأخواته ، إذا كان له أخوة أو أخوات صغار !

الخطبة

وفى النهاية سيرضى الأب بتزويج ابنه وأنفه فى السحاب ، أو أنفه فى التراب ! وسرعان ماتذكى الأم الخاطبات ، محترفات أو صديقات ، فى التماس العروسة الحلوة فى بيوت الأكفاء . حتى إذا عدن إليها بالخبر ، أرسلت إلى أم العروس من تعين معها موعداً لرؤية فتاتها. وفى هذا الموعد تمضى الأم وبنتها المتزوجة وأختها ، وقد تستصحب بعض جاراتها من الصاحبات والمواليات . ولا تسقط من عدة الوافدات الخاطبة المحترفة ، إذا كانت الزيادة لخاطبة محترفة ، يمضى كل هؤلاء إلى دار العروس ، وقد أخذن زينتهن ، وتحلين بأغلى حليهن ، وأضفين عليهن برود الحبر فاذا لم يكن لهن شيء من ذلك ، استعرنه من بعض الصديقات المترفات .

ويحسن بنا ،وقد بلغنا هذا الموضع ، أن نسلخ بعض الحديث للفتاة المخطوبة ، قبل أن ينالها الوافدات بالتوسم والتصفح والقياس والتقليب.

قل من كانوا يدفعون بناتهم للتعليم فى المدارس ؛ بل لم يكن هنالك تعلم مدرسى للبنات ألبتة قبل خمسين عاما ، أى قبل قيام المدرسة

السنية، فالطبقة الأرستقراطية كانت تعلم بناتها فى القصور. أما الطبقة الوسطى، وهى الطبقة التى تدير عليها الكلام فى هذا الحديث، فكثر أهلها كانوا يشخصون بناتهم الصغار إلى «المعلمة». وهذه «المعلمة» امرأة تخيط الثياب لمن شاء من أهل الطبقتين الوسطى والدنيا، وتتخذ من دارها شبه مدرسة تعلم البنات فيها هذه الصناعة بقدر. فإذا زكت الفتاة وبلغت سن المراهقة كفها أولياؤها فى الخدر تعالج فيه مع أمها شؤون البيت، ولا تزال كذلك فى انتظار «العدل» و«العَدَل» بفتحتين، يعنى به النساء الزوج الكفء، الذى يكفل ويغنى، ويسعد ويهنى. ومن هذا الوادى قولهم: «ربنا ما يعطى الضعيف عدل». يدعون على الجلف الوضيع اللفظ بألا يمكنه الله من حمام ولا سلطان، لأنه إنما يتخذها أداة للسلاطة والعدوان!

يتلقى أهل البيت الواردات بأحسن مظاهر التأهيل والترحيب. وقد سبقوا فنظفوا الدار وأحسنوا تنضيض الأثاث. ودفعوا فتاتهم إلى الحمام فأحسنوا جلاءها وصقلوا عارضيها، وقلموا أظافرها، ورجلوا شعر رأسها، ومشطوه، ونضدوا على الجبين مقدمه، وضفروا سائره ضفيرتين. ثم ألبسوها أجمل الثياب، وحلوها ما أصابوا من لبات وأساور وأقراط وخواتم.

ويبدأ تقديم «الشربات» تطوف به امرأة أو شابة أو فتاة من جارات الدار، أو خادم من خدمة البيت أو من خدم الجار.

ثم لا تزال الأنظار تطلع إلى ناحية الباب ترقباً لطلعة العروس. ثم إذا هى مقبلة تمشى على استحياء، وقد أسبلت جفنيها، وهى تحمل

فنجان القهوة تقدمه إلى السيدة الكبيرة أولا ، ثم تعود بالثاني إلى الثانية ، وهكذا . والأنظار تتناهبها من كل جانب : هذه تتوسم وجهها ، وهذه تتفقد عنقها وصدرها . وأخرى تسرح النظر في شعرها ورابعة تلاحظ خطوها لعل فيها ظلعاً أو شكالاً[١] لا يدعن في جسمها رقعة إلا أوسعنها تفقداً وتصفحاً وتأملا . ولا يفوتهن ، مع هذا ، أن يلاحظن مبلغ مهارتها في حمل فنجان القهوة ، وكان كما تعلم يعتمد على طرف دقيق القاعدة . فإذا أبلغته ولم تسل منه ، على امتلائه ، قطرة ، كان دليلا على المهارة وحسن الخدمة أي دليل !

فإذا فرغن من هذا دعونها إلى الجلوس ، فجلست على طرف كرسي في طرف الغرفة ، في خفر بعضه متكلف مصنوع . ثم رحن يستدرجنها إلى الحديث ، لعل في لسانها حبسة أو عقدة أو رتة . أو لعل في بعض لفظها لثغة . فإذا اطمأنن على سلامة اللسان ، ونصاعة الأسنان ، ظللن برهة يسيرة يمتدحن فيها جمال الفتاة وحسنها ويشدن بأدبها ولطف موردها . ثم استأذن في الانصراف ، وأقبلن على أمها وسائر من حضرن مسلمات مودعات مقبلات ، وأذكين على الفتاة أدقهن حساً وأنقدهن أنفاً ، فانفتلت إليها تحييها وتبالغ في تدليلها وإعزازها ، وإظهار الحب لها والكلف بها ، وراحت تواليها (تحت هذا العنوان) تقبيلا وضما ، والتزاماً وشما . وهي إنما تفعل في تمهر لا يخفي زيفه على أحد ، قصداً إلى تشمم فيها لعل فيه بخراً وأبطها لعله يفوح دفراً . ولا تألوها لمساً ومساً ، وغمزاً وجساً ، طائفة بأيدي على جوارح الجسد ، لعل منها ما عراه الرهل أو أصابه الأود !

---

(١) الشكال : الظلع الخفيف

ولربما طفن من غدهن ببيت فلان وبيت فلان ، ثم بعد غد بيت فلان وبيت فلان ، حتى يستعرضن السوق كلها ويثلن الكنانة ثلا ، مايدعن فيها سهماً ولا نصلا !

ولربما رجعن إلى بعض من وردن لاعادة النظر ، أوعلى الأصح لاعادة الفحص والتنقيب ، والامعان فى الفر والتقليب ، مايرى أولياء الفتاة بذلك بأساً ، ولا يجدون فى أنفسهم منهم حرجاً !

فإذا أذن الله واجتمع الرأى على فتاة من هؤلياء ، خطبت إلى الأم أولا . فاذا اتفقت الأمان على المهر وإلاصار الأمر إلى الأبوين ومن إليهما من الأولياء . ولربما استعان ولى الزوج ببعض الظاهرين من الجهة على ولى العروس فى سبيل الحط من مقدار الصداق المطلوب فاذا لم يبق موضع لخلاف من هذه الناحية ، قرأ الجماعة فاتحة الكتاب فى خفوت تبركا واستكمالا لفضل الله العظيم . وكذلك يشيع بين نساء الحى وفتيانه أن فلانة قد قرئت فاتحتها . وليس وراء الفاتحة إلا قبض مقدم الصداق ، فالعقد فى الأعراس . يتخلل هذه الفترة ألوان من الهدايا والألطاف ، تساق الفينة بعد الفينة إلى دار العروس . وتدعى هذه الهدايا بالنفقة وعلى قدر هذه النفقة يعلق النساء أبلغ الأحكام . ومن أمثالهن السائرة فى هذا الباب « العريس يبان من نفقته » وهذه الهدايا لا تعدو النقل والحلوى ، والسمك ، والشياه ، وإذا طلع العيد الكبير .

ولقد جهد بى ، ياسيدى القارىء ، ولعله قد جهد بك أيضاً ، فلقد طال المقال ، وتجاوز القدر المقسوم له ، فلنرجىء الحديث فى حفلات العرس إلى يوم آخر إن شاء الله .

كيف كان الشباب يزوجون

٢

قد مضى قولنا فى الخطبة وأسبابها ، ولم يبق بين أيدينا إلا العقد فالأعراس ، ويحسن بنا قبل أن نتناول شيئاً من هذا بالحديث أن نعود فنؤكد لك أن البنت ، على وجه خاص ، لم يكن لها أى رأى فى أمر زواجها، ولا فيمن يتزوجها ، ولا يسوغ لها أن تتطلع ولو إلى مجرد العلم بشيء من ذلك ، إنما الأمر كله إلى أمها وأبيها يزوجانها متى شاءا وممن أرادا .

أما الزوج فيختلف شأنه فى هذا بعض الاختلاف ، فهو فى الكثير الغالب لا رأى له فى الأمر ولا خيار . على أنه قد يعلم عن عرسه الكثير أو القليل عن طريق أمه أو أخته أو خالته ، وإنما يهيء له الاستماع والاستخبار ماهو مفروض له من جراءة مهما ضعفت فانها لا تصل إلى خفر فتاة عذراء !

وقلت لك « فى الكثير الغالب » لأنه فى القليل النادر قد يكون الولد مدللا مرهفاً ، وحينئذ يكون له فى الأمر رأى ولو بمقدار .

وكيفما كان الأمر ، فلقد كان محظوراً على الخطيبين أن يترائيا ، حتى بعد العقد ، إلى أن تحين ساعة الزفاف ، بل لقد كانت الفتاة إذا خطبت إلى ابن عمها أو ابن خالها ، أو ابن عمتها أو ابن خالتها ،

من نشأت سمهم وعنيهم ولاعبتهم فى حضورها، لفرع أولياؤها فحجبوها عنه، وبالغوا فى حجابها إلى يوم الزفاف، شأن الأجنبية سواء بسواء. وكان لذلك حكمة لا تخفى على فطنة الفطناء!

وتحل ساعة العقد، فلا يكون وكيل العروس إلا أباها أو عمها، عند فقده، أو أخاها وكلته أو لم توكل، تكلمت أو عقد الحياء لسانها عن الكلام.

وبعد أشهر تقضى فى إعداد الجهاز الذى قد يكون موضوع مساومة عنيفة بين أولياء العروسين، يعين يوم العرس، أو «ليلة الدخلة» فى تعبير النساء!

وتسير «زفة» الجهاز من بيت العروس إلى بيت العريس تتقدمها الموسيقى، ومن ورائها حملة التحف والآنية الثمينة باسطين تحتها أيديهم، فهذا يحمل ديباجة من الحرير موشاة بأسلاك الذهب والفضة، وهذا يحمل طشتاً وإبريقاً من خالص الفضة، أو من النحاس المموه بالذهب والفضة، وهذا علبة تنكشف عن بضعة أكواب من الفضة، وهذا طاس حمام كذلك. ولقد ترى آخر يحمل بين يديه قبقاباً مكفتاً بالصدف والفضة!

ثم يلى هؤلاء رتل من «عربات الكارو» لا يدرك الطرف آخره، قد بسط الجهاز عليها بسطاً، ومط فوقها مطاً. فهذه خشبية (مرتبة) قد خص بها مركبة، وهذه خمس وسائد، قد أفردتها

عربة وقائد ، وهذا « كنسول » عليه مرآة ، وقد قصرت العربة عليه دون سواه ، وهذا نضد (ترابيزة) قد شجر بالزهور ، وهذا « دولاب » قدت أبوابه من البلور ، وهذه الخف مبسوطة ، وهذه نمارق مثنية ، وهذه أريكة بين يديها شجاب ، وهذان كرسيان قد نشر عليهما ستر باب وهكذا وهكذا !

ولا تزال هذه العربات تجوز بك وهي في كلاءة الأحراس ، حتى تختم الموكب ، بفضل الله ، بعربة النحاس . وكان في عربتين كفاية ، وفي ثلاث فضل . ولكن لا تنس أن للتباهي حكمه ، وللتكاثر غرمه وغنمه !

ولقد ترى أن شيئاً من هذا لا يزال قائماً إلى الآن ، ولكنه أضحى مقصوراً على الطبقة الدنيا من الأهلين ، وكيفما كان الأمر ، فلعلك لم تنس أني قلت في الحديث السابق إني أحب أن أجلو الصورة كلها قبل أن تحول أو يلحقها النصول .

وترسل الدعوة لوليمة العرس إلى الأصدقاء والجيران والمحبين ، وهي رقعة في حجم الكف تكتب صيغة الدعوة فيها بماء الذهب ، وتبدأ عادة ببيتين أو ثلاثة من الشعر ، وكانوا يدعونها الملاحق . ولكيلا أشق عليك في إشاعة تخييلك فيما عسى أن يكتب في هذه الملاحق أعرض عليك نموذجاً منه !

من دعى فليجب

ليالى الأنس قد طابت ورقت — وطير الصفو غرد بالسرور
وجاد الدهر بالبشرى علينا — وداعى السعد وافى بالحبور
فهيا يا أحبة شرفونا — بأنسكمو ومنوا بالحضور

بمشيئة الله تعالى ، سيحتفل فلان فى يوم كذا من شهر كذا سنة كذا بتأهيل نجله فلان على كريمة فلان ، وذلك بمنزله الكائن بجهة كذا .

فالمرجو التشريف لتتم بكم الأفراح ، وتزول عنا الأتراح . والحضور الساعة ١٠ عربى نهاراً ، والعاقبة عندكم فى المسرات .

وقبل أن أخوض بك فى ليالى العرس ، فكثيراً ما كان الاحتفال بالعرس يستغرق ليالى لا يقصر على ليلة واحدة — قبل أن أخوض بك فى هذا ، أقرر أن المصريين . وكانوا دائماً أهل كرم وإيثار ، فما كانوا قط يستأثرون فى أعراسهم ونحوها بأسباب تلذيذهم وتطريبهم بل لقد كانوا يبسطونها ويبذلونها فى الطريق العام ، قصداً إلى أن يشركهم فيها كل من شاء من الناس .

ولقد قلت لك أن الاحتفال بالعرس كثيراً ما كان يستغرق ليالى لا يقتصر على ليلة واحدة . وهذه الليالى ، كانت فى الغالب ثلاثاً : اثنتين منهما تدعيان بالضمم (بضم ففتح) . أما الثالثة وأعنى بها الأخيرة ، فليلة الزفة ، أو ليلة الدخلة ، ليلة تولم الولائم ويقرب لجمهرة المدعوين شهى المطاعم .

وأولى هذ الليالى تخص بخيال الظل ، وهو عبارة عن دكة كبيرة تعلو وجهاتها شاشة بيضاء تقرب مساحتها من شاشة السينما الآن ، أما جوانبها الأخرى فتحجب بألواح من الخشب يداخل بعضها فى

بعض، وفيها باب لدخول اللاعبين وخروجهم، وفيها يضيئون مشاعل قوية لتجلو على النظارة ما يعرضون من الصور في وضوح وجلاء.

أما هذه الصور فلأناس، ودواب، وطيور، وأشياء. وتسوى هذه الصور من الجلد ونحوه، تصبغ بمختلف الأصباغ لتحاكى ألوان ما يبدو من الأجسام والثياب.

ويمثل خيال الظل رواية قوامها عشق وصبابة بين فتى مصرى صميم، وفتاة بنت راهب مسكنها مع أبيها الدير! ويتخلل هذه الرواية صور استعراضية متنوعة. وكل من يحرك صورة من صور هذه الأناسى يجرى الكلام على لسان صاحبها فى دقة وبراعة تقليد، حتى كأنها هى التى تتحدث بأسماع الناس. فهناك المغربى، والسورى، والبربرى وابن البلد المصرى. ومن هؤلاء ونسمع ماشاء الله من رائع النكت، وقد يكون بعضها من عفو الارتجال.

ولقد كان أفخم خيال للظل هو الذى يديره المعلم حسن قشاش وكان سيد أصحاب النكتة فيه غير مدافع، هو المرحوم ناجى، وقد رآه كثير من أهل هذا الجيل ممثلا بشخصه فى الأعراس، أو فى دور القنيل فى الفصل المضحك الأخير. أما دور ناجى فى خيال الظل، فكان تمثيل الغلام بولس شقيق علم، والترسل بينها وبين صاحبها تعانير حتى يصل بينهما الزواج. وكان، رحمه الله، يرسل بالنكتة بعد النكتة فى خفة روح ولطف إيقاع، حتى يكاد يشق أضلاع النظارة من شدة الضحك المتواصل بغير انقطاع.

وقد ذهب عنى أن أقول لك إن الطبل البلدى كان له مجلس

بين يدى الخيال ليعزف فى أوقات الاستراحة أو ليرقص على توقيعه من يرقص من أشخاص الخيال .

أما الليلة الثانية فيبعث السمر فيها أبو راية ، وأبو راية علم على تلك الفرق التى كانت تمثل بأشخاصها فى مقدمات ليالى الأعراس ؛ إذ كانت تصف الدكك والكراسى على عدارى الطريق لجلوس النظارة إذ يترك وسطها مرحاً لاضطراب هذه الطائفة من المفلسين . وكانت هذه الفرق تمثل كيف الحمو ايات إذا أسفت مطالبها وسخفت مغازيها ، فلقد كانت مغرية بما يشيع فيها من بارع النكتة . ولقد كانت الحال تدعو إلى ظهور امرأة فى بعض الرواية ، على أن امرأة لم تكن تظهر أبداً ، فكان يتخذ هذا الدور إما مخنث محترف ، وإما رجل يحسن تقليد النساء .

ولا شك أن سيد هؤلاء المفلسين كان المرحوم الحاج أحمد القارى الكبير ، والعجيب أن هذا الرجل على خصوبة بديهته ، وتدفقه بالنكتة يشق الناس لها ثيابهم من ضحك ومن انبهار ، لم يكن يبتسم أبداً ، بل لقد كان يتكلف الجد إلى حد أنك تراه دائم العبوس .

ومما يحسن فى هذا المقام ذكره ، أن هؤلاء المفاليس كانوا يعتمدون رجلا من خلب أصحاب العرس أو من حواشيهم ، ولعل ذلك كان بالاتفاق معهم ، فيتخذون منه عامة الليل هدفاً للنكتة حتى ما يدعو فيه أديماً صحيحاً ، والناس يضحكون ، والرجل معهم من الضاحكين .

وحسبنا هذا اليوم . وسنفرد ليوم العرس حديثاً خاصاً إن شاء الله .

الأدب الفج

كان من مزايا صديقنا شاعر النيل حافظ بك إبراهيم ، عليه رحمة الله ، مطاوعة البديهة ، وحضور النكتة ، يتصرف فيها ويفتن لكل مقام ، ما تتعاصى عليه ولا تتعثر على لسانه أبداً .

وكان ، إلى هذا يحفظ أظرف النوادر وأطرفها وأدعاها للعجب ، وأبعثها للضحك .

وقد سمعت منه ، رحمه الله ، النادرة الآتية ، قال :

قبل أن يوصل ما بين منيل الروضة والقاهرة بالجسور (الكباري) كان الناس يتخذون الفلك (المعدية) في ظلهم العبر من العبر .

اتفق أن جاء رجل من المدينة ليعبر إلى الروضة من ساحل فم الخليج ، وكان الليل قد تقدم ، فوجد الملاحين يغطان في نوم ثقيل ، من تعب الليل وكد النهار ، فما زال بهما حتى بعثهما . ونهض أحدهما إلى موضع المجاذيف ، وتولى الثاني الدفة ، وأنشأ صاحب المجاذيف يضرب بمجذافيه جسم الماء ، على أنه ما كاد يفعل مرتين أو ثلاثاً حتى انبهر وانقطع نفسه ، وانخذلت قواه ، وأحس شدة جفاف

الحلق من أثر الحشيش ، فتناول الكوز، ولم يكن يعلم أن زميله كان قد أذاب فيه ملحاً ليعالج به أذنهُ ، واغترف به من النهر غرفة ، وأصاب من الماء، فإذا هو ملح أجاج ، فصاح من فوره بزميله صاحب الدقة :

ــ ياريس عويس ! ...

ــ هو !

ــ إيدك ! ... دخلنا المالح ! ..

ولقد أذكرنى هذه الحكاية ، بعد نسيانها السنين الطوال ، شأن أبنائنا من رادة الآدب فى هذه الأيام ، وحرصهم على الظفر بالشهرة ، بل بالبطولة والمجد والخلود ، بعد علاج منظوم أومنثور فى بضعة أشهر ، أوفى بضعة أسابيع . وأخشى أن أقول فى بضعة أيام فى بعض الأحيان !

وقبل أن أخوض فى لجة الموضوع ، أرى من الخير أن أنقل إلى قراء الثقافة صدراً من حديث لمتحدث ، أذاعه بالراديو فى غاية الأسبوع الماضى ، كان بعضه يطوف بهذا الموضوع ، قال :

« لاريب أن مانسمع الآن من المقطوعات الغنائية إنما هو من النوع الواطى الردىء ، الذى لا قيمة له ولا وزن ، ألفاظ سوقية مبتذلة ، وتراكيب سقيمة مفككة ، ومعان منحطة ، وأخيلة ظاهرة

الزيف والترقيع ، فاذا عدت هذه الأناظيم من الأدب ، على أى وجه من الوجوه ، فهى من الأدب لفسد الوضيع أو على التعبير العامى الشائع من الأدب «الفلصو» الذى لامحل له بين كرائم الآداب.

وإنى أشك فى أن أكثر هؤلاء الناظمين قد أصابوا حظاً من اللغة ، أو جروا على عرف ، ولو ضئيل ، من آدابها ، إننى أشك فى أن أيهم حفظ شيئاً من شعر البحترى أو أبى نواس أو أبى تمام . بل إننى لأشك فى أن أيهم شق ديوان المتنبى أو أرسل النظر يوماً فى ديوان ابن المعتز أو فى ديوان مسلم بن الوليد وما أحسب أحداً منهم طالع ولو بنظرة واحدة ، كتاب البيان والتبيين إذا كان قد سمع باسم الجاحظ ، ودرى بأن لهذا الجاحظ كتاباً يدعى «البيان والتبيين».

« وماله ، لعمرى ، يقرأ وماله يكد النفس ويعنيها فى الحفظ والمراجعة ، وماله يستهلك الزمن فى تقليب النظر فى روائع الآداب، وترشف ألوان البلاغات ، كما يترشف الماء الزلال ذو الغلة الصديان؟ ماله يعانى كل هذا أو بعض هذا ، ولقب الأديب ولقب الشاعر مكفول له من غير كد ولا مطاولة ولا مقارفة جهاد ؟ » الخ . . .

وبعد ، فلقد يكون فى هذا الكلام شىء من القسوة ، ولكنه لا يعدو الرغبة فى الخير على كل حال ، وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى » .

وكيفما كان الأمر فان هذا الضرب من الأدب ، قد انحط فى الجملة ،

على لقد هوى بالى قرار سحيق ، وإن ما تسمع من هذه المقطوعات الغنائية ليشعرك حقاً بأن كثرة هؤلاء الناظمين قد ارتجلوا حرفة الأشعار ارتجالا ، وانتحلوها انتحالا ، ما عناهم في سبيلها جهد ولا تحصيل ، ولذلك من لا يبذل في سعيه إلا الجهد الرخيص ، لحقيق بأن لا يظفر ، إن ظفر ، إلا بالحظ الرخيص . وليس أدل على هذا من أن الكثرة الكثيرة من هذه المنظومات الغنائية لا يكتب لها العيش إلى اليوم الثاني . ولا أدري كيف لا يكون من هذا وحده عبرة لأولئك الناظمين ؟ (١)

ولو قد تفقدنا السبب الحق في تدلى المستوى في بعض أسبابنا ، وأعية مستوى الأدب ، على وجه خاص ، إلى الحد الذي يضر ويؤذى ، لأصبناه في هذا الطائف الذي تطوف بنا في هذه السنين ، وهو ضعف العزائم ، وقلة الصبر ، وتعجل الثمرات ، وابتغاء النتائج من غير تقديم ما يحتم المنطق وتقضى الطبيعة بتقديمه من المقدمات !

هؤلاء أناس يحبون المال ، ويشتهون الغنى ، ولكنهم لا يبتغون

---

(١) ليس المراد أولا أن تجري هذه المنظومات الغنائية مجرى جيد الشعر من جزالة اللفظ وفحولة النظم ، بل الأمر على العكس فإنه ينبغي سهولة اللفظ ، ولين التركيب ، بل لقد يقتضي الأمر استعمال العامية في بعض الأحيان لغة كلامية لا يصلح إلا بها الكلام ، وكذلك كان يصنع كبار الشعراء والزجالين في الماضي ، وكذلك كتب لأناشيدهم البقاء إلى الآن . وكذلك يصنع كبار الشعراء والزجالين اليوم ، وكذلك يرجى أن تعيش أغانيهم طويلا إن شاء الله .

المال من وسائله ، ولا يطلبون الغنى من طريقه المقسوم ، من حسن القصد ، وموالاة السعى ! والتخفف عما لا حاجة إليه من النفقات ، وموالاة الجمع والتثمير . ولكنهم لا يجدون فى أنفسهم الكفاية من الوسائل المقدرة لإصابة الغاية ، ولا من قوة الصبر والانتظار ، ولا من احتمال الجهد فى سبيل الجمع والإدخار ، ولا شىء من هذا الذى يدرك به ، فى العادة الغنى واليسار . إذاً فليقامر ، فلقد يكون إقبال الدنيا فى القمار . والقمار ، حرسك الله وعصم عليك مالك ، وإن قل ، سبيل ميسرة لكل إنسان . فمن ثقل عليه أن يستوى إلى إحدى موائده الخضراء لهوان شأنه ، وضيق يده ، فلا يثقل عليه أن يخاطر فى حلبة السباق . أليس الجواد (الفلانى) قد أغل الريال عليه مائتى جنيه ؟ ومن ثقل عليه أن يؤدى نصاب الرهان على الخيل فليشارك فى النصاب ، وإلا ففى ورقة اليانصيب متسع للجميع ! وفيها المائة والمائتان والخمسمائة والألف والآلاف ، وهكذا يجىء الغنى عفواً بلا سعى ولا كد ولا عناء ! ثم إذا كف المسكين صفر ، سواء فى آخر الليل أو فى آخر النهار !

وإذا كان هناك فرق بين هذا الذى يطلب الغنى من غير سبيله ، وذلك الذى يشتهى أن يجنى ثمرات الأدب من غير سبيله ، فإن الحظ محتمل لذلك ولو بنسبة $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠}$ أما هذا فغير مقدور له حظ أبداً !

لا ، لا ، يابني . لا تظن أن المنزلة فى الأدب أو فى غير الأدب تواتى بمثل هذا اليسر كله ، فالأدب يقتضيك ، مهما تكن قد رزقت الموهبة ، أن تسهر الليالى فى حفظ الروائع التى جاد بها من سبقوك من أئمة البيان ، وفى تقليب الذهن فى بلاغات من تقدموك من كفاة أصحاب البلاغات ، وشدة المطاولة فى محاكاتهم ، والتشبه بهم فى منازع بلاغتهم ؛ فاذا تهيأ لك أن تستحدث طريفاً أو تبتدع فى الفن جديداً ، فأنت الأديب الموهوب بفضل الله . أما أن تطلب الطفرة ، وتلتمس النتيجة من غير مقدمات ، فالطفرة ، لو علمت ، محال . لن تكون أكثر من أديب مرتجل ، أو بالتعبير العامى أديب شيطانى مادمت تقنع من السعى بأن تنظم كلاماً فارغاً مليحاً ، تلفقه تلفيقاً لا براعة فيه ، من كلمات جمال الطبيعة ، والأشجار والأزهار والأطيار ، والعبير ، والغدير ، والهدير ، والقمر والنجوم ، والسحاب والغيوم ؛ فإذا وصلت بسلامة الله الى « لحف الخلود » فقد أديت « رسالة الأدب » ، وحق أن يذهب لك صيت وذكر فى التاريخ . وما شاء الله كان !

لا ، لا ، يابنى ، لا يكفى أن تؤلف ، أو على الصحيح أن تلفق من هذه الكلمات ، أو منها ومن سواها ، كلاماً بائخاً مليخاً ، لا طعم له فى مساغ النظام ، ثم تطلع به على مغن حدث أو مغنية حدثة ، لتصك بترديد ، أسماع الناس صكا . لا يكفى هذا فى ابتغاء الرزق

من الأدب والمنزلة فى الأدباء .

وسامحنى ، يابنى ، إذا قلت إنك وأمثالك من أصحاب هذا الأدب الفج (العجر) لتجنون على أنفسكم أولا ، وتجنون ثانياً على الأدب فى هذه البلاد وغير هذه البلاد !

وأرجو ألا تصغى إلى أصحابك ولداتك الذين ينضحونك بالثناء نضحاً ، فيصفونك بالعبقرية، ويضيقون منظومتك إلى الخلود. وكذلك يرم أنفك . وكذلك يطمعونك فى المنزلة بين السماكين، وكذلك تقطع كل سبب بينك وبين مساعى الحياة ، إذ كفك صفر ، وإذا أنت لا تزال هائماً فى القفر ، فأنت إذاً « كالمنبت ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ، وصدق رسول الله .

أما أن يصدق هؤلاء الناشئون أنهم قد رزقوا الموهبة جميعاً ، فلا حاجة لأحد منهم بسعى ولا تحصيل ، ولا جهد كثير ولا قليل ، فليعلموا أن الناس لا يمطرون المواهب بمثل هذه الفداحة الفادحة وإذا كانت أمثال هذه المواهب مما يباع ويشرى ، لما ابتغت لها ، معرضاً أليق من سوق العصر .

هذه ، شهد الله ، نصيحة صادقة مخلصة ، يسديها إلى جمهرة الناشئين من الناظمين ، من لا يشعر لهم إلا بعطف الوالد على الولد.

فإذا أصروا بعد هذا ، على أنهم بضربتين من المجذاف « قد دخلوا الملح » ، فأمرهم وأمر الأدب إلى الله .

ذكريات

بيني وبين حافظ ابراهيم

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن نتصدعا
فلما تفارقنا كأني ومالكا لطول افتراق لم نبت ليلة معا

وبعد فما أدري ماخير « الهلال » في أن تريدني على الكتابة فيما كان بيني وبين شاعر النيل حافظ بك إبراهيم ، عليه رحمة الله ؟

لا أدري ماخيرها في هذا ، وما الذي يغريها به ويدفعها إليه ، وكلما اعتذرت ردت الاعتذار ، وكلما حاولت التملص سدت على المنافذ ، وأخذت بين يدي المذاهب . ويا عجباً ! ماذا يكون بيني وبين حافظ إلا مايكون ، في العادة ، بين جميع الأصدقاء ، أو بين جميع الأعداء !

كنت أصحب حافظاً ويصحبني ، وكنت ألقاه ويلقاني . وكنت أسمر معه ويسمر معي . على أنني لم أكن وحدي الذي ظفر بهذا الحظ من حافظ إبراهيم ، فمن صاحبوه ولا زموه كثير ، ومن غشوا مجالسه ، واستمتعوا بملحه وطرائفه أكثر . وحافظ لم يكن متحجباً ولا منقبضاً عن الناس ، ولا برما بلقائهم وغشيان مجالسهم وفسح مجالسه لهم ، والتبسط بألوان الحديث معهم ، بل لقد كان فياضاً ثراً

متدفقاً يسمح بطرائفه، كما يسمح بماله وبطعامه، ما يضن على أحد بما طالت يده ولا بما يطول لسانه، ففيم إيثارى بالتحدث عنه، وفيم اختصاصى بالقول فيما كان بينى وبينه؟ على أنى ما برحت مفروح الكبد لفقده، ما ترقأ لى عليه دمعة، ولا تبرد لى، كلما ذكرته، لوعة. فكيف لى، مع هذا، بالخوض فيما يروق من شأنه، وما يعجب وما يسر من حديثه وما يطرب؟

في الحق إن تكليفى هذا دون الناس جميعاً عجب من العجب!

وبعد، فاذا كانت «الهلال» إنما تحرص على إيثارى بهذا لأنها تحسب أنى كنت أوثق أصدقاءه به وأقربهم محلا من نفسه، فقد خالفها الظن وأخطأها الحسبان.

عاشرت حافظاً وصاحبته ولازمته أكثر من خمس وعشرين سنة متوالية متصلة، حتى مضى إلى فضل الله ورحمته. ومع هذا لا أدرى أكان لى أصدق الأصدقاء، أم كان لى أعدى الأعداء؟ ولا أدرى من جانبي أيضاً، أكنت له أصدق الأصدقاء، أم كنت له أعدى الأعداء؟ وهل كان يحبنى أشد الحب، ويضمر لى أخلص الود، أو كان يكرهنى أشد الكره، ولا ينطوى لى إلا على أبلغ المقت؟ كذلك لا أدرى إذا كنت أحبه أشد الحب، ولا أكن له إلا أصدق الود. أو أنى أكرهه أعنف الكره، ولا أنطوى له إلا على أقسى الحقد والبغض، أكان يكبرنى ويجل موضعى، وكنت أكبره وأجل

محله ، أم كان يزدريني وأزدريه ، ويرى ألا فضل لى وأرى ألا خير فيه ؟

وترى أنه كان لا يبغى لى إلا النفع والخير ، ولا أبغى له إلا النفع الخير . أو أنه كان لا يرجو لى إلا الأذى والضر ، ولا أرجو له إلا السوء والشر !

مازالت ، لعمرى ، بين الأمرين فى أحير الحيرة وأضل الضلال ! كنت لا أستطيع صبراً على فراق حافظ ، وكان حافظ لا يستطيع صبراً على فراقى ، ولا أستطيب طعاماً شهياً إلا إذا كانت يده مع يدى ولا تطيب له نزهة مفرجة إلا إذا كانت رجلى مع رجله ، وهل مهد لاتيان مجلس غناء أو لهو أو سمر ، فاستوى فيه ، واطمأن إلى موضعه منه ، إلا إذا كان صاحبه معه ، واحتل من المجلس موضعه ، لا يحقن أحدنا عن الآخر سراً ، ولا يكتمه من مداخل أمره أمراً .

ولقد يدعونى بعض الأمر إلى الشخوص إلى الاسكندرية على أن أبيت فيها ليلة ، فيثبط من همتى ، ويدغدغ من عزمى ، ويهون على من خطب طلبتى ، وينطلق يذم الاسكندرية ، ورطوبة الاسكندرية ، وضيق مساحة الاسكندرية ، حتى لتلق من تكره فى اليوم الواحد عشرين مرة فى الاسكندرية فاذا أصاب منى العزم والاصرار ، زم متاعه ومضى معى إلى الاسكندرية ، مايفتر لسانه طول الطريق لحظة واحدة عن لومى وتقريعى ، والابانة عن سوء رأيى وفساد ذوقى . يفعل هذا وهو متجهم الوجه بادى الغيظ ! ولقد تدعوه بعض الحاجة إلى سفرة كهذه السفرة ، فأفعل معه مثل هذه الفعلة . وسرعان

ما أرزم حوائج السفر، وأمضى معه متى استيقنت من عزمه وإصراره!

وكيفما كان الأمر فانى أعود فأقرر أن حافظاً رحمة الله عليه كان لا يستطيع على فراقى صبراً ولا أستطيع على فراقه أصبراً، ومع هذا فانه ماجمعتنا خلوة إلا جعل يصارحنى ببغضه، وباديه بمقته. ويذكرنى ماأسلفت من أذاه، وأذكره ما أسلف من الكيد لى، ولا نزال على هذا حتى يبدو ناجذ الفتنة ويهيج هائج الشر. ومع هذا لا توسوس لأينا نفسه بالفرقة وطلب الخلاص من هذا البلاء!

لاأذكر أنه ضمنى به مجلس قط، سواء كان فيه من نعرف أو من لا نعرف، وكان فيه من فعلى أقدارهم، وبخل أخطارهم، أو كان فيه من نهاون شأنهم، ولا تضمر أنفسنا إلا استحقارهم والزراية عليهم. لا أذكر أنه ضمنى به مجلس قط إلا جلاله مداخلى وبذل بين يديه أكره مكارهى. فاذا أعوزته المكاره خلقها خلقاً وارتجلها من عفو الخاطر، ارتجالا!

ولقد يوغل فى الكيد ويمعن فى الأذى، فيشرك نفسه معى فيما يرمينى به من ألوان التهم، ولو قد صح أكثرها لأفضت بنا كلينا إلى محكمة الجنايات، والعياذ بالله. فيقول لما فعلت أنا وفلان كذا، ولما افترقنا كذا، وهكذا . . . وكل هذا ليؤكد على التهمة ويوثق الجريمة. وتراه يضع فى هذا الموضع نفسه، ويبلغ منها به مالا يبلغ أعدى عدوها، ليرضى نقمته منى واضطغانه على، ولا أجر الله القائل:

فاقتلونى ومالـــكا واقتلوا مالـكا معى

انظر ياسيدى كيف يكون غيظى ، حتى لأكاد أخرج من جلدى ، ثم فكر فيما يرمى به لسانى من منكر القول ، ومستكره اللفظ ، نضحاً عن نفسى ، وشفاء لصدرى ! ثم تدبر ، بعد هذا ، مايعترينى من الألم ، وما يلحقنى عليه من واخز الندم . ولعنة الله على الغضب ومايفعل الغضب !

ولقد يتوافق رأيانا فى رجل ، فنذكره بما نحسب فيه من ثقل الظل ، أوسدة البخل ، أو الكذب والتزيد ، أو التنفج وعرض الدعوى ، أو غير ذلك مما يكره الناس أن يذكروا به ، فيلقاه فى سر منى ، ويقول له : « إلا فلاناً يرميك بكيت وذيت ، فتعال معى أسمعك بأذنك » ويواريه فى غرفة مجاورة أو يدسه من حيث لا أرى ، خلف ستار ، أو تحت سرير . ثم يقبل على فيستدرجنى إلى حديثه ، وماعسى أن نكون قد أرسلنا من النكات على خلاله تيك ، فاذا بلغ من هذا كل ما أراد ، سل صاحبنا من حيث كان ، فطلع على مغبر الوجه ، متكرش الجبين ، محمر الحدق ، بارز الناب !

وانظر يارعاك الله ، أى جهد يجب على أن أبذله ، وقد يعيننى حافظ بانقاذ الموقف (كما يقولون) وصرف الأمر كله إلى النكتة ، حتى يسكن غضب الرجل ، وينفرج غمه ، وتطيب نفسه ، ويشيع البشر فى وجهه ، على أننى إذا خرجت من ثائر شره على سلم ، واطمأننت منه إلى الأمن ، فانى لأقضى بقية نهارى وسواد ليلى قلق

النفس مقشعر الجلد بما عسى أن كان يكون . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ومن أعجب العجب ، وإن شئت قلت ، من بركة العجز، أن هذه الحوادث قد انتهى أكثرها ، إذ لم يكن قد انتهى جميعها ، إلى استيثاق الصلة ، وعقد الإلف بيننا وبين هؤلاء الذين كان يغريهم حافظ بى ، ويثير حفائظهم على بما يسمعهم من حديثى فيهم ، وتناولى لمكارههم . وقد يزداد هذا الإلف على الأيام حتى يصبح صداقة متينة وداً خالصاً !

وأغلب الظن فى هذا أننا لم نكن نعرفهم حق المعرفة ، ولم نخالطهم حتى نقلب عن يقين حقيقة شأنهم فنسرع إلى الحكم عليهم بما نرى من ظواهرهم أو بما نسمع من خصومهم عنهم . حتى إذا عرفناهم وبلوناهم ، تجلت لنا فضائلهم ومزاياهم . وإذا ما ذهبنا إليه إنما كان أوهاماً فى أوهام ، لم نخرج منها واحسرتاه ، إلا بالمناكر والآثام ! اللهم اغفر لنا خطايانا وتب علينا واعف عنا ، إنك أنت التواب الرحيم !

على أن مما يعزينا فى هذا الباب ، أننا ما تناولنا ، والحمد لله عرضاً ، ولا اتهمنا أحداً فى ذمة ، ولا رميناه بكبيرة . إنما هى الشهوة إلى التندر على الناس والسلام !

ولقد كان حافظ يعرف منى شدة الخوف مثلا من سرعة السيارات فيستدرجنى الى إحداهن لنزهة أو لعدة . ولا أركب حتى أستوثق من أن السائق لا يفعل . وإذا هو قد أوصاه ، وربما رشاه ، فما يكاد الخنزير يبعث عجل السيارة ، حتى يجريها فى سرعة الكوكب

الهاوى ، أو البرق الخاطف ، ما يبالى زحمة الطريق ، ولا مواجهة الترام ، ولا يطامن منه أنه يرقى تلعة ، أو يمشى على حافة ترعة . أو نحو هذا مما يغلب توقع التلف فيه على توقع السلامة !

وبعد ، فأرجو ألا تظن أننى كنت أتمثل مع حافظ ، على شيء من هذا ، بالحكمة الرفيقة القائلة : « المسامح كريم » فانني ما كنت أجزيه إلا شراً بشر وغيظاً بغيظ ، وكيداً بكيد ! ولعلى كنت أخبر الناس بما يخبث نفسه ، ويكدر صفوه ، ويذكى همه وغمه ، ويسود نهاره ، ويقض الليل مضجعه . فما حرمت شيئا من هـــذا شهوة الحقد أبداً ، والبادى أظلم !

وهذا ولا نتفارق ، لأننا كلينا لا نستطيع على الفراق صبرا .

وإذا أردت أن تعرف بالضبط والتدقيق لون الصلة التى كانت بينى وبين حافظ ، فالتمسها فيما كان يصفنى به ويردده على الأسماع عنى : « فلان ضرر لابد منه » وكان ذلك رأيى فيه أيضاً . رحمه الله ، وألحقنى به على الايمان إن شاء الله .

وأرجو ، إذا كان فى العمر فسحة ، أن آتى بشيء من التفصيل عن بعض ما كان بينى وبينه من هذا القبيل .

مهم الأديب فى الشرق
أن يكون أديباً شرقياً

ولست أعنى بالأديب كل من يجيد سبك الشعر أو يحسن تزويق الكلام ، إنما أعنى بالأديب ، الأديب حقاً ، وذلك الذى استنارت بصيرته ، ورهفت حسه ، ولطفت مشاعره ، وأضحى له من حد النظر فى بواطن الأشياء وما ينقطع دونه جهد الأنظار . إنما أعنى بالأديب ذلك المفتن الذى يلمح بالنظرة الومضة ما لا أدركه أنا ولا أنت ولا يقع عليه حسى ولا حسك مهما أذكينا من الذهن وشحذنا من الاحساس .

لست أعنى بالأديب هذا الذى يشمر فى اختلاق الأخيلة لم تتنظر لنفسه ، وفى تلفيق الصور ما نجلت على حسه . إنما أعنى بالأديب ذلك الذى اتسع أفقه ، ونفدت إلى الأطواء بصيرته ، فهو يرى بعينه الباطنة مالا يرى غيره ، فاذا تعاظمك ماجلا عليك من غريب الصور ، وماسوى بين يديك من طريق الخيال ، فلا تظن أنه ملفق أو مزور أو مختلق ، بل إنه ليحدثك بما تتحدث به نفسه ، ويجلو عليك مايرى هو وما يسمع وما يشعر فى غير زيادة ولا نقصان .

ولعلك قد أدركت من هذا أن ذلك الأديب النير الحساس لايجدى الأدب ولا الناس إذا لم يكن متمكناً من ناحية البلاغة ،

حتى يستطيع أن يكون أميناً ودقيقاً ورائعاً فيما ينفضه عليك من صور البيان .

وبعد، فان مهم الأديب فى الشرق جليل الخطر، بعيد الأثر، مهمه الأول أن يوجه حسه إلى الشرق ، وأن يحرر عاطفته كلها للشرق ، فقد استدرج الغرب إليه حس أدباء الشرق وعواطفهم جميعاً ، أستغفر الله ، بل لقد سطا بها سطواً ؛ وانتزعها من بيئتها انتزاعاً .

اللهم إن أعظم أدبائنا الشرقيين قدراً، وأجلهم خطراً . لا يكادون يطرحون النظر إلا على الغرب ، ولا يكادون يتصورون الأشياء إلا بذهن الغرب ، ولا يكادون يصورون مايجدون إلا على أسلوب الغرب بل لا تكاد أعرافهم تلين وتنفع ! إلا لما يقبل عليهم من ناحية الغرب . لقد استهوتهم حضارة الغرب ، وفتنهم جمال الغرب، وملك فكر الغرب عليهم كل مذهب ، فلم تبق فيهم فضلة لتقليب النظر فى هذا الشرق ، ولا لتصفح وجهه ، والتدسس إلى ماتحت السطوح مما كثرت القرارات وأجنت الأطواء !

ولعل عذرهم كان فى أنهم نشأوا فى لغات ميتة ، وآداب ميتة ، وحضارات ميته ، وأفكار ميتة ، وجو كله موت لا تترقرق فيه نسمة من نسمات الحياة ! وما ظنك بمن أحس الاختناق لفساد الجو ، أفلا تراه يجرى لا لتماس الهواء الطلق ، يتفرج به ، ويملأ منه رئتيه كلتيهما ليرد به على نفسه ما مضى عنها من عناصر الحياة . وكذلك صنع أدباء الشرق ، وكانوا فيما صنعوا حق معذورين !

فى الحق إن الغرب قد استولى على أدبنا ، وأعنى أدبنا الحى أو أدبنا الذى يزعم لنفسه الحياة ، كما استولى على أرضنا ، وعلى علمنا وفننا ، وتجارتنا أو صناعتنا وكل سبب من أسباب الحضارة فى هذا العالم . لقد استولى الغرب على كل شىء عندنا ، حتى على الأدب ، وأصبحنا فى جميع وسائلنا أشبه بالمكارين يسعون سعيهم لحساب أصحاب الأموال .

ولقد يتعاظمك ويشيع فيك العجب مازعمت من أن الغرب قد استولى على أدبنا فيما استولى ، ولقد يكون أهم الداعيات على إنكارك ماترى كل يوم لكتابنا المجلين من لفظ عربى رشيق ، فى نظم عربى أنيق ، وما تجد من منازع بلاغات تطاول أزكى بلاغات العربية فى أزهى العصور ، فليس الأدب حلاوة لفظ ، وتلاحم نسج وإشراق ديباجة فحسب ، بل إنه قبل ذلك لوضاءة نفس ودقة شعور ، ورهافة إحساس ، ونفوذ نظر ، وتهيؤ فطرى لبراعة التصور ، ثم قدرة قادرة على براعة التصوير . وفى هذا المظهر الأخير إنما يحتاج إلى براعة النظم وصحة البيان .

وأرجو بعد هذا أن تحدثنى بعيشك ، كيف يكون أدبنا شرقياً ، وكيف يعد أدباؤنا أدباء شرقيين ، وهم متغيرون لبيئتهم ، منكرون كل الانكار لما يحيط بهم ، لاحظ للشرق ، ولا لطبيعة الشرق ، ولا لشىء من أسباب الشرق فيما يتصورون وفيما يصورون ؟

وبعد ، فللشرق أرضه وسماؤه ، وله هواؤه ، وله جباله ووديانه ،

وأنهاره وخلجانه ونباته وحيوانه ، وله سهله ووعره ، ومعموره وقفره ، وله صحاريه . وناهيك بصحاريه وما ألهمت من الشعر فى قديم الزمان ! وللشرق عاداته وأخلاقه ، وله أفكاره وأذواقه ...

للشرق جماله وفتنته وسحره ، وله جلاله ورهبته ، وهذا تاريخه الضخم ، لقد احتشد بعوامل القوة والعظمة ، كما سال بآثار الفلسفة والعلم والفن جميعاً . ولقد أزل لنا هذا التاريخ من مجالى عظمة الشرق مايحير الألباب ، سواء منه ما طاول السحاب ، وما دسا فى التراب !

ولعمرى ، أليس فى هذا كله مايبعث العاطفة ويستجيش الحسن ، ويلين أبدع الصور تتراءى فى أبدع البيان ؟

لقد كان الشرق مهبط الشعر كما كان مهبط الوحى وفيه رقى بيان الأرض كما تنزل بيان السماء .

ولقد كان لأجلاء أهل البيان عذرهم الذى أسلفت فيما عذرهم الآن ، وقد انبعثت اللغة ، وحىّ الأدب ، وذكا الشعور ، ورهف الحس ، وراح منا خلق يعالجون مايعالج أدباء الغرب من تحليل الأشياء ، والنفوذ إلى الأطواء ، واستظهار الطريف البديع من مختلف الصور فى شتى مظاهر الحياة .

مالنا ، وقد بلغنا هذا القدر ، ولو بفضل ترويناً من أدب الغرب ، لانوجه إحساسنا وعواطفنا إلى هذه البيئة التى نعيش فيها ، فنتصفحها ونمعن فى تصفحها ونتوسمها ونطيل فى توسمها ، فانها قمينة بأن توحى

إلينا أبلغ مما نرجو من ابتهار ومن روعة وجمال !

اللهم إن أكثر أدبائنا العظام إنما يغذون أرواحهم بآداب الغرب في الكتب والرسائل ، وفيها يقلبون الذهن ، ولها يفتحون الأعراق ، وفيها يغرقون الحس ، وبها يذكون العاطفة ، فأضحت هي متاعهم الروحي لايزاحم نفوسهم عليها متاع ، وهي في الغاية سبيل إنشائهم ومادة إنتاجهم ، إليها يردون ، وعنها يصدرون ! فيتهيأ لنا مع هذا أن نزعم أن هناك أدباً شرقياً وأن هناك أدباء شرقيين ؟ (١)

إن مهم الأديب في الشرق — وما وقعت في كلمة الشرق في هذا المقال إلا تمثلت مصر أولا وجمهرة البلاد العربية ثانيا — أقول إن مهم الأديب في الشرق أن يفطن نفسه إلى بيئته أولا ، ويشعرها أوفى الشعور بأنه إنما يعيش في بلاده ، فيها يدور الفكر ويجول التصور ، ومنها يشتق التخييل ويستنزل الالهام ، وكذلك يكون لنا ، نحن المصريين ، أدب مصري وأدباء مصريون، وكذلك يكون لجارتنا سورية الأدب السوري أدب سوري وأدباء سوريون، وكذلك يكون للعراق أدب عراقي وأدباء عراقيون ، وهكذا. فاذا فرقت بين هذه الآداب بعض العوامل المحلية المختلفة من طبيعة البلاد ومناظرها وتاريخها وعرفها ونحو ذلك ، فلا بأس بهذا ، فسيجمعها ذلك الطابع

(١) إذ واجب الانصاف يقضي علي بأن أقرر أني قرأت لبعض كبار الكتاب أدباً مصريا خالصا في القصص وفي غير القصص . وقد بلغوا فيه الذروة في الدقة وجمال التصوير وصدق البيان على أن هذا في النسبة قليل ، والحديث يسوق الغالب الكثير .

العربى العظيم . أما الآن ، فلاشك فى أن هذا الأدب غريب فينا أو نحن فى هذا الأدب غرباء !

أستغفر الله أن أدعو إلى هجر أدب الغرب ونحرم قراءته وتروية، أو عدم استعانته فى التحليل والانتاج والتصوير . أستغفر الله أن أدعو إلى هذا أو أشير به ، فانى إذاً آثم فى حق أدبنا أعظم الآثام ، وأجرم عليه أشنع الاجرام !

بل كل ما أريد أن مانصيب من أدب الغرب ، ومانتذوق ، لاندعه يطغى هذا الطغيان على أدبنا الشرقى ، فان الخير كل الخير أن نسيغه ونهضمه ونغذى به أدبنا على أن لا يبدل خلقه ولا ينكر صورته ، كدأب الأمم التى تعتد بآدابها وتريغ لها قوة الحياة من كل سبيل .

فقد عرفت أن المهم الأول للأديب فى الشرق أن يكون أديباً شرقياً ، مصرياً إذا كان فى مصر ، وسورياً إذا كان فى سوريا ، وعراقياً إذا كان فى العراق ، وهكذا يشعر بأنه يعيش فى بلاده – كما أسلفت – أو فى الشعور ، ومما يحيط به يشتق التصوير ويستنزل الالهام ، فاذا كان الأديب الشرقى كذلك ، بعث من عواطف قوية كل ممكن ، واستخلص من بواطن النفوس كل دفين ، واتخذ من أخلاقهم وعاداتهم مادته فى الفحص والتحليل ، ومن ميولهم ومنازع نفوسهم أداته فى التصوير والتخييل ، وشاد بجليل مفاخرهم ، وتغنى بسالف مآثرهم ، وكذلك يبعث الأدب الحق ويبعث الشعور القومى جميعاً .

اللهم إن الأمم العربية لتجد فى السعى إلى تحرير الأوطان ، فمتى تسعى إلى تحرير الآداب فلا يكون للغرب عليها هذا السلطان ؟

عباقرة الفن

قبل أن نقص ما هيأناه لهذا المقال من القصص ، نعيد ما سبق لنا أن ذكرنا في مثل هذا المقام من أن الكذبة الفنيين ليسوا جميعاً على غرار واحد ، ولا يلزمون موضوعا مشتركا ، بل إن منهم الاخصائيين ، تجرد كل منهم فى مطلب ، وحبس سعيه وجده عليه لا يعدوه إلى غيره ، أما رأيت الأطباء كيف يتخصصون ، هذا للأمراض الباطنية ، أو لأمراض المعدة منها ، أو لأمراض الصدر دون غيرها ، وهذا للأعصاب ، وهذا للجراحة ، وهذا للحنجرة والأنف ، وهذا للعيون الخ ... وكذلك عباقرة الفن منهم من اختصت عبقريته بالحديث فى الطعام ، ومنهم من اختص بالبطولة والفروسية فى القتال والصدام . ومنهم من لا يعدل ولهُ النساء عليه وغرامهن به أى غرام ، وهو يضن على الآلاف منهن بالنظرة ، ولا يبرح يقدم فى صدورهن نار الغيرة ، ويذيب كبودهن من شدة الوجد والحسرة . والمسكين وخمسة من سكرتيريه قد استهلك نهارهم ولياهم، فى الرسائل الغرامية يسطع أريجها ، ويتضوع فى الحى والأحياء المجاورة عبيرها ، حتى لو صبت أوعية أكبر « فابريقات » الروائح العطرية فى العالم ، ما فعلت فى الجو فعله ، ولا نشرت فى الأفق العريض مثل شذاها وطيبها . وهذه الرسائل كلها قد جادها الشغف والولوع ، بالعارض المتان من سخين الدموع ، حتى إذا فرغ المسكين المرهق بالحاح ربات

الحجال ، المضنى بمطاردة جميع ملكات الجمال، تراه قد أرخى جفنه، ورمى بنظرة ساحرة تسلك أعصى الكبود وتذيب الحجر الجلود !

وهناك إخصائيون فى غير هذا أو ذاك . على أن هذا لا ينفى أن هناك من عباقرة الفن من لم يلتزموا موضوعا ، ولم يتخصصوا فى أمر ، فهم كبعض أطباء الريف المصرى ، يعالجون كل مرض ، ويطببون كل علة، فمن رمد بين ، إلى التهاب جلد ، إلى شق دمل ، إلى تجبير عظم ، إلى توليد حامل ، إلى انسداد أنف ، إلى تمدد كبد ، إلى التهاب صدر ، إلى وجع بطن ! فهؤلاء الفنانون العموميون (إن صح هذا التعبير الشائع) يضربون فى كل مجال ، ويأتون فى كل مقام بأبدع المقال . فهم أغنى الناس إذا ذكر الغنى ، وهم أشجعهم إذا دار الحديث فى الشجاعة ، وهم الأجزل مائدة ، والأشهى طعاما إذا مال القول إلى الطعام والنسم ، وما يحدث الكظة ويدعو إلى البشم ، وهم أشغل الناس لقلوب النساء إذا جرى ذكر الهوى . وما تفعل الفرقة والنوى ، وكيف تصنع بالعاشقات تباريح الهوى فإذا جاء حديث أولياء الأمور وكبار الحكام فخذ ما شئت من تهافتهم عليه ، وتباريهم فى الزلفى اليهم ، واستنارتهم برأيه فى المهمات ، واتباعهم لنصحه فى الأحداث الملمات وهكذا . . .

والعجيب فى أمر هؤلاء جميعا أنك تجدهم حاضرى الذهن ، حافلى الخاطر ، مستيقظى الذاكرة . لا يند عنهم كبير ولا صغير ، ولا تنتثر عليهم شاردة ولا واردة ، ولا يغيب عن ذاكرتهم شىء .

عما وقع لهم فى الماضى الطويل ، مهما دق أمره ، وهان قدره ، فما يكاد أحدهم يسمع فى المجلس الكلمة يهتف فيها هاتف بتقدم أحد فى باب من هذه الأبواب ، إلا انبرى من فوره يشيد بما له هو من السبق والتقدم ، ويستشهد على هذا بالقصص المسبوكة المحبوكة ، يرويها مندفقاً غير متحبس ولا متوقف ولا متلجلج ولا متتعتع ، ولا مستعين بتنحنح ولا بتعسل ، كأنما يصدر حديثه عن المؤنس (موسيق القرب) لشدة اتصاله ، وعدم الشعور بانقطاعه ولو مدة جرم النفس !

وكان لى صديق رحمة الله عليه ، يتمالح بهذا الكذب ، وما برح من نشأته يوالى هذا ويدأب عليه ، حتى صار له عادة وجبلة ، وكثيراً ما سمعت أنه إذا لم يكذب لا يستريح عامة يومه ! على أن كذبه كان حلواً عذبا يشعر من فوره بأنه كذب .

كنت أتمشى معه فى صدر إحدى الليالى وقت الغاس ، والجو أدنى إلى الظلمة ، وكان وقتئذ طالباً فى إحدى المدارس العليا ، إذا نصب عليه رجل لا أدرى ولا يدرى هو من أين طلع ولا من أين هبط . بادره بطلب دين عليه . وقبل أن يتم الرجل مسئلته ، عاجله صاحبي مقسما على أنه ليس معه إلا الريال مسخة الجزمة ، فانصرف الرجل عنا وهو يضرب كفاً بكف ! يالطيف ! . . .

واشترى ذات يوم قيصاً وأرانيه ، وجعل يدلنى على جودة قماشه وحسن تفصيله ، فقلت له : بكم اشتريته ؟ قال : بجنيه مصرى ! ولكننى رأيت مكتوبا على عنقه : P.T. 50 ، فقلت له : يا أخى

إن الثمن خمسون قرشاً . فأجاب فورا : بل هى خمسون نصف فرنك .

وسافر فى بعض السنين إلى أوربا ليقضى أشهر الصيف وسلخ أكثر المدة فى انجلترا ، ثم عاد سالماً ، وجعل يروى ما وقع له من طرائف الحوادث ، وهى كثيرة جدا تثقل العد والحساب ، وكان أطرفها حقاً أن إحدى نجوم السينما فى لندن (وسمى ممثلة زائعة الشهرة بالجمال والفن معا) أحبته وكلفت به كلفا شديدا ، فكانت تقصر عليه كل أوقات فراغها ، تصاحبه فى نزهاته ، وفى غشيانه لدور الملاهى ، وتمضى معه لشهود ما يجتمع لشهوده ، من المعاهــــد والمعابد والمكتبات ونحو ذلك ، حتى لقد تركت قصرها الفخم لتبيت معه فى نزله . فلما آذن الصيف بالادبار طالعها بنية السفر والقفول إلى بلاده ، فتعلقت به وجعلت تبكى وتستعبر ، وتنشج أشد النشيج وأوجعه ، وتضرع إليه أن يبقى ، على أن تعوضه مما يخسر من ترك عمله فى مصر عشرات الأضعاف ، وهو يتأبى ويتجنى ، حتى إذا يئست من مقامه ، صممت على ترك عملها فى انجلترا والشخوص إلى مصر ، رجلها مع رجله !

وما زال بها يدفعها عن هذه النية الخطيرة ، فلا تتقلقل ولا تتململ ، إلى أن خوفها نقض التزامها للشركة التى تعاقدت معها ، وما يلزمها من تعويضات جسيمة ثم سكتت على أن تلحق به إلى مصر بمجرد انتهائها من عملها ، وكذلك استطاع أن ينفلت من بين يديها . وكذلك خلا له وجه الطريق إلى مصر !

انتظروا يا معشر القراء ، فان الرواية لم تتم فصولا .

بعد قدومه ببضعة أشهر لقيته ذات يوم فقال : ألم أحدثك حديث

ممثلة السينما الانجليزية؟ فجمعت ذا كرتى ثم قلت : بلى قال : لقد ذهبت ليلة أمس فى جماعة من صحبى إلى دار سينما (كذا) فاذا صاحبتنا تمثل فى إحدى الروايات المعروضة ، وما أن رأتنى حتى انفلتت من موقفها فى الرواية . وأقبلت نحوى حتى ملأت وحدها وجه الشاشة وحجبت كل ما يليها . وانحنت انحناءة بديعة وهى تبتسم ابتسامة أبدع. ثم جمعت أطراف بنانها ، ولثمتها لثمة طويلة ، ثم فرقتها مومئة إلى بها ، ماتبالى النظارة ولا أصحاب الدار ، ولا أولياء الشركة فى سبيل الغرام. أرأيت يافلان إخلاصاً كهذا الاخلاص وغراما كهذا الغرام ؟

فحلفت له بكل مؤثمة من الأيمان بأنه ما كان من يوم أرسل آدم وحواء إلى الأرض إلى اليوم ، ولا يكون من اليوم إلى ساعة ينفخ فى الصور إخلاص يدانى هذا الاخلاص ، ولا غرام يبلغ عشر هذا الغرام !

ولندخل الآن فى البطولات الاختصاصية (إذا صح هذا التعبير) ولنجعل حديثنا الأول منها فى البطولة العسكرية فهى الأشكل بحال العالم فى هذه الأيام :

فلان بك رحمة الله عليه ، انحدر من ناحيتيه من أصل تركى . أو تركى وشركسى . وكان أبوه الباشا ممن حكموا فى مصر ، واقتنوا الضياع ، وشيدوا القصور ، وتركوا لورثتهم فوق ذلك جلائل الأموال . وحصل صاحبنا من العلم فى أول نشأته مالا أظنه يزيد على ما تلقنه المدارس الابتدائية ، اللهم إلا ما حصله من اللغة التركية . فلقد كان يحذقها كدأب أمثاله من أولاد الذوات فى ذلك العهد ، بحكم بيئتهم

وكثرة حديثهم بهذه اللغة مع آبائهم ، وأمهاتهم وجواريهم وأغواتهم .

وقضى أبوه ، وأزل له بالارث ما قضى الشرع من تلك الضياع والبيوت والجوهرات والدنانير . وكان ذلك شيئاً كثيراً [١] . وكان كلفاً شديد الكلف بالدولة التركية ، لا يرى جيشاً أقوى من جيشها ، ولا أسطولا أضخم من أسطولها (وإن كان محجوباً عن الأنظار الآن) ولا سياسة أحكم من سياستها ، أما الحديث في «المابين» ورجال «المابين» والسلطان وما أدراك ما السلطان ، فذلك شيء لا تتطاول إلى وصفه الأقلام .

شغل هذا ذهن الرجل حتى استغرقه ، وملك عليه جميع حواسه ، واستهلكها استهلاكا ، فلا يحتويه مجلس في داره أو في دار غيره ، أو في المقهى ، أو في قطار السكة الحديد ، إلا تحدث في هذا وأسرف في وصف ما رأى من عظمة تركيا ، ودهاء ساستها ، وقوة جيشها ، وضخامة أسطولها أيضاً !

ثم بدا له فجمع نحو أربعين غلاما أفرغ عليهم ثياباً عسكرية تركية ، ودعا برجل من أساتذة الموسيقى ، فقام على تعليمهم وتمرينهم في فنون الموسيقى التركية ، وجاءهم بأحسن الآلات ، وزودهم بأكثر ما دون من «النوتات» ، وأقام لهم داراً واسعة في إحدى ضياعه ، فاذا أقبل عيد جلوس السلطان أو عيد ميلاده أو غير ذلك من المناسبات دعا بالموسيقى إلى القاهرة . فجعلت تطوف عازفة بشوارعها الكبرى ، وهو يتقدمها وعليه الحلة العسكرية التركية . على أنه كان

---

(١) لقد أضاع الرجل كل هذا ، ولم يبق له ما يساوي درهما واحداً .

متواضعاً ، فلا يضع على كتفه إلا شارة أمير اللواء (ميرالاى) التى نالها بكل استحقاق فى أثناء خدمته فى الجيش العثمانى ، وما أبلى فى حروبه الكثيرة بعد تخرجه من المدرسة الحربية هناك ، متفوقا على الأقران فى الامتحان !

وهنا أرجوك ، ياسيدى القارىء ، ألا تكون فضولياً فتسأل: متى كان سعادته فى القسطنطينية ومتى انتظم فى المدرسة الحربية ، ومتى غزا وقاتل إذ هو لم يغب عن عيون أهل مصر فى يوم من الأيام؟ لا تكن ، بالله ، فضولياً ، فتوجه إلى نفسك أو إلى غيرك مثل هذه الأسئلة . وأنت ، على كل حال ، حر فى تقبل الحديث وفى رده ، ولا ضير فى هذا الرد على أحد ، ولله در العامة إذ يقولون فى مثل هذا المقام : « البايرة على بيت أبوها ! »

وبعد ، فقد عرفت أن صاحبنا قائد عسكرى من أشهر قادة الجيش التركى ، وماعرض أحد بين يدى مجلسه لذكر موقعة حربية حديثة ، إلا هتف بما أبلى فيها وجاهد ، ونازل وجاهد ، وما نصب للعدو من كمين ، وما أوقع بهم من الشمال ومن اليمين .

على أن من واجب الانصاف أن تقرر أن الرجل لم يكن قائداً عسكرياً برياً فحسب ، بل لقد كان فى بعض الأحيان قائداً بحرياً من أمهر أمراء البحر ، ولقد أذكر أنه ضمنا به مجلس فى قيام الحرب الكبرى الماضية ، وجرى ذكرى الغواصات ، وكيف يعصف « تربيدها » بالسفن عصفاً ؟ فقال : اسمعوا : لقد كنت أقود ذات يوم طراداً تركياً فى الدردنيل ، فرمته إحدى غواصات الحلفاء « بتربيد » فنسف

وغرق من فيه فى الحال ، ولم يبق منه إلا أنا ونرجيلتى (الشيشة) يحملنا لوح من الخشب ، ولبثنا على هذه الحال اثنتى عشرة ساعة، حتى أنقذتنا سفينة عابرة ، وكانت الشيشة هى سلوتى فى هذه الساعة المهولة !

فقال له خبيث من الحاضرين : ألم تنطفىء الشيشة يا فلان بك فى كل هذه المدة ؟ فأجاب من فوره : ما أنا كنت بكركر فيها !

ومن أروع عبقرياته التى لا تلحق أبداً ، والتى تعز على طول الزمان ، وتعصى ، أننا كنا فى بعض الأمسية نسمر فى دار قريب له ، وكان معه أكبر أولاده ، وكان ذلك فى أثناء حرب البلقان سنة ١٩١٣ على ما أذكر ، وجعل الحاضرون يهتفون بفضل رءوف بك قائد الطرادة حميدية ، ويشيدون بجرأته ومهارته ، وفعله الأفاعيل بطرادته فقال : ألا تعرفون أن رءوفا هذا هو ابنى؟ فلم يتداخلنا شك فى أنه يعنى أنه تلميذه ، تخرج عليه فى مدرسة البحرية ، فلعله كان أستاذاً فيها أيضا . ومن يدرى ؟ فلما قلنا له فى ذلك ، قال : بل ابنى من صلبى لا تلميذى ، فقال ابنه ، وكانت سنه تبلغ نحو الثامنة عشر : وهل سبق لك يا أبى أن تزوجت غير « نينتى » ؟ فأجابه فى عنف وغضب بل هو ابنى من أمك . أخرس بقى واخرج من هنا . فتولى الفتى سا كتا مبهوتا !

وأظن أن هذا أيسر جزاء ، لمن لا يعرف شقيقه الأكبر ! رحمه الله ومن مات من رصفائه الأجلاء ، وبسط فى أعمار تلاميذهم من الأحياء ، حتى يبلغ الفن على ألسنتهم ما هو مقدور له من القوة والنماء .

تقاليد الفن فى مصر

وكانت مصر إلى عهد قريب حريصة شديدة الحرص على التقاليد، من هذه الناحية، أشبه بانجلترا، إذا لم يكن أهلها أشد محافظة من الانجليز.

والتقاليد، ولا ريب، من مشخصات الأمة، وعنصر من عناصر مقوماتها فى الحياة. على أننا جعلنا، من أعقاب الحرب العظمى إلى الآن نهدمها بأيدينا هدماً، وننسفها، بكل مايدخل فى طاقتنا، نسفاً، إما لمجرد المحاكاة والتقليد، وإما لمحض الاغراب والإتيان الجديد، ولو كان هذا الجديد الغريب شمجاً مليخاً ناشزاً على الأوراق!

وليس يتسع هذا المقال بالضرورة، للحـــديث عن جميع تقاليدنا التى كنا نعتنقها إلى ذلك العهد القريب، ولا عن أكثرها فذلك شىء يطول على الاحصاء، ولهذا أجرد مقال اليوم للحديث عن واحد منها، وأعنى به الغناء.

وقبل أن أخوض فى لجة الموضوع، أنبه إلى أن مصر من أكثر الأمم، إن لم تكن أكثرها جميعاً، تلوينا للتغنى والترنيم، فهى تتغنى بقراءة القرآن الكريم، وبالأذان للصلاة، ومايتقدم أذانه

الفجر من أهازيج السحر، وكذلك تتغنى بالمولد النبوى الشريف، وتتغنى بالانشاد وفى حلق الأذكار. وأنت خبير بأن غناءها الرسمى هو التخت، وللعامة الغناء البلدى أو الحلاوى، يوقعه موقعوه على صوت المزمار البلدى المتخذ من القصب الفارسى (الغاب).

ولا تنس غنـاء الصهبة وهذا خاص بجماعات الحشاشين، يوقعونه فى مقدمات الأعراس، وقد زاد العصر الحاضر على كل هذا المنولوج وما إليه.

أما الموسيقى الآلية، فعندنا منها النحاسية المعروفة، والطبل البلدى، ولا زال معروفاً أيضاً، والنقارية أو النقرزان، وكانوا ينقرون عليه فوق ظهور الجمال، وبين يدى موكب العروس. ولا يزالون يضربون به فى ذيل المحمل الشريف. وقد زادنا العصر الحديث الموسيقى الوترية (الأركسترا).

وقد تجاوزت ألواناً غير يسيرة من الموسيقى، لأن شأنها غير كبير.

وبعد، فلست أدعى العلم بتقاليد كل لون من هذه الألوان. ولا بما كان يأخذ به أصحـابه أنفسهم، ويلتزمونه ولا يعـدونه فى كبير من شأنهم ولا صغير. ولـكننى أعرف شيئا من آداب بعض هذه الفنون منها ماشهدته بنفسى، ومنها ما أرويه عن الثقات الصادقين. ومن هذا وهذا ما عفى عليه الزمان، ومنها مالا يزال قائما إلى الآن.

فمن آداب تلاوة القرآن الـكريم، أو من التقاليد المرعية فى ترتيله، إذا صح هذا التعبير، أن قارئاً له قدر ووزن لا يمكن أن

يبدأ ترتيله إلا جاريا فى نغمة البياتى حتى إذا قضى فيها وقتا طويلا أوقصيراً ، ثنى عنان التنغيم إلى غيرها ، فلبث فيها ماشاء أن يلبث، ثم أقبل على غيرها . وهكذا مايزال يتقلب فى فنون النغم كلما بداله أو كلما توسم فى إحداها الاستراحة وشدة التطريب. وقد يعود فى أثناء القراءة إلى نغمة البياتى فيصيب منها أيضا ماشاء أن يصيب. وكيفما كان الأمر ، فانه حين يؤذن الوقت بالانتهاء لا بد له من أن يختم بهذه النغمة ، مهما يجشمه التحول إليها من النغم البعيد وكثيراً ما يكون هذا التحول سريعا ، وداعياً إلى الاعجاب !

فمتقدمو القراء فى مصر لا يبدأون قراءتهم إلا من البياتى ،وبه دائما يختمون . وكذلك تسمع القرآن عن طريق الراديو من المشايخ العظام ، محمد رفعت ، وعلى محمود ،وعبد الفتاح الشعشاعى ، ومحمد الصيفى ، وطه الفشنى ، وغيرهم من مشاهير المرتلين .

على أننى لا أدرى من أين جاء مصر هذا التقليد ، ولا متى كان مهبطه من الزمان القريب أو البعيد ! ولعل ذلك يرجع إلى أن هذا البياتى هو نغمة البلد الأصيلة ، أو هو من آصل النغم التى تتقلب فيها حناجر المصريين . ففى الحق أن هذه النغمة ، فوق سعة آفاقها، وتقبلها لكثرة التصرف والتلوين ، فان المصرى يجد من الاستراحة إليها والأنس بها ، مالا يجد لكثير . أو لعله يرجع إلى هدوء فى طبيعتها ، يلين للحناجر قبل أن تصقل وتجلى ، ثم يتلطف لها بعدما نهكها الجهد الشديد .

هذا ما كان وما لا يزال قائماً من أدب ترتيل القرآن الكريم عند كبار المرتلين . أما أهازيج السحر التي تتقدم أذان الفجر، وهى أناظيم فيها استغفار ، وفيها تشفع بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وفيها توسل بآل بيته ، تسليمات الله عليهم ، ويدعوها العامة الأوّلة فهذه كان لها فى القاهرة تقليد جميل .

ولقد تعرف أن القاهرة كانت إلى عهد غير بعيد لا تشغل إلا رقعة ضيقة من الأرض ، وكانت المساجد والزوايا تتمتع فيها بنسبة كبيرة من عدد المبانى ، فانى اضطربت رفعت لك المساجد الأثرية الجميلة ، والزوايا اللطيفة المتواضعة التى لا يكاد يخلو منها زقاق من الأزقة أو درب من الدروب .

وقد حدثنى الثقات الصادقون من مشيخة القارئين ، أن جميع مؤذنى المساجد فى القاهرة كانوا إذا ظهروا المآذن للهتاف بالأولى أو الأوّلة وقفوا وقد أرهفوا آذانهم ، وعلقوا أنفاسهم فى انتظار الأمر الذى يصدر إليهم عن مئذنة الشيخ صالح أبى حديد بالنغمة التى يجرون فيها الأهازيج لليلتهم . فاذا جلجل مؤذن الشيخ صالح بنغمة الرصد مثلا ، أسرع مؤذنو المساجد حوله بالصياح بها ، وأخذ إخذهم مجاوروهم ومن تقع للأسماع أصواتهم ، وهكذا فلا تمضى دقائق إلا والقاهرة كلها تجلجل بنغمة الرصد . وإذا بدأ بالبياتى ، أو بالحجاز . أو بالسيكاه الخ ... فهكذا وما شاء الله كان !

وهذا إذا دل من ناحية على القصد إلى ضبط المؤذنين لأصواتهم، وتحكمهم فى نبراتهم، وعدم تأثرهم بالأنغام الأخرى، وإلا اضطروا إلى الخطأ، ودفعوا برغمهم إلى النشوذ (النشاز) - إذا دل هذا على هذا فانه فى الموقف نفسه دليل على أن أهل مصر، أو سكان القاهرة على الأقل، كانوا أصحاب فن، وأهل ذوق، وعشاق تطريب!

وإذا ذكرنا أن مسجد الشيخ صالح أبى حديد، حديث، لأن الذى تقدم باقامته هو ساكن الجنان الخديو اسماعيل، وقد أدرك الشيخ فى الحياة، وكان له فى صلاحه وولايته اعتقاد كبير — إذا ذكرنا هذا رجح الظن بأن هذه العادة أو هذه الزعامة تحولت إلى هذا المسجد من مسجد آخر عتيق.

وقبل أن أعرض لما أعرف من أدب الانشاء على الذكر، أرى من الخير الكثير أن أنبه إلى المنشدين الذين يجرون من الصنعة على عرق، لا يمكن أن يفسحوا فى حناجرهم إلا على ذكر السادة الليثية، نسبة إلى الإمام الليث بن سعد المصرى، رضى الله عنه، وذلك لأن أهل هذه الطريقة أصحاب فن موسيقى بقدر كبير، فنى طرائقهم بالهتاف باسم الله تعالى «لا إله إلا الله! الله الله!»، ما يمكن للمنشد المفتن من أن يلقى أهازيجه، موشحة كانت أو دوراً أو مقطوعة شعرية أو موالياً، غير متعثر ولا متحير، بل لقد يكون ذكر الذاكرين لاسم الله تعالى، على أساليب هذه الطريقة، خير، يعينه على الإنشاد، ويهديه فى سبيله السبيل.

وإن أنس لا أنسى السيد على الركبى ، رحمة الله عليه ، وكان قائد الذكر الليثى ، أو ضابط الايقاع ، فى تعبير هذه الأيام ، وقد أدركته شيخاً تقدمت به السنون ، مرسل اللحية البيضاء ، وقسماته تنبىء عن طيبة قلب ، ولطف نفس . فاذا جلس أعلام المنشدين لشأنهم فى صدر المجلس ، جعل يدير أساليب التنغيم بالذكر تنغيما فنياً يهيىء لأولئك المنشدين أداء مهمتهم على أدق القواعد وأحسن الوجوه . ولقد يصرفهم هو فى فنون النغم ، بتوجيه الذاكرين إلى هذه الناحية أوهذه الناحية ، مسرعاً مرة ومتمهلا أخرى ، ضابطاً الوحدة بنقرة بخاتمه الفضى على حق سعوطه النحاسى . فكان بحق أكفأ ، ما يسترو ، رأته العيون فى هذه البلاد .

والأدب ، أو التقليـــد الذى أحصيه لهؤلاء القوم ، أنه إذا جلست الجماعة للانشاد ثم فرغوا مما استفتحوا به مجتمعين ، جعل كل منهم يتغنى فرداً مستغيثاً بالنبى صلى الله عليه وسلم وآل بيته ، تسليمات الله عليهم ، ثم عاد إلى التغنى ببيت أو ببيتين من الغزل الرقيق ، والذى أسوق له القول ، هو أن أول من يبدأ بالانشاد يجب أن يكون أعلى الحاضرين سناً ، ولو كان أنكرهم صوتاً ، ثم يليه من يكبر سائرهم . وهكذا . وقد كان يجىء المرحـــوم الشيخ يوسف المنيلاوى ، فى بعض الأحيان ، آخر المتغنين ، وهو غير مدافع ملك المنشدين !

فن الحزن

لأول مرة فى حياتى أدس قلمى بين قلمين يتحاوران ويتنازعان فى قضية من قضايا الدنيا أو الدين، وحين كنت قاضياً لم يكن يحرج صدرى بقضية قدر حرجه بقضية يقتحم فيها على المتخاصمين ثالث، فتتشعب به وجوه الخلاف، ويطول أمد النزاع، ويجتاز صدراً كبيراً من هم القاضى فى البحث والتحرى عما إذا كان هذا الخصم الثالث جاداً فى دعواه، جارياً على عرق من الحق فى مطلبه، أو هو متواطىء مع أحد الخصمين ليدفع يده عن بعض حقه، أو ليدفعها عن حقه كله؟ ولقد بان لى بعد امتحانى بمنصب القضاء بزمن يسير أن أكثر قضايا المحاكم الشرعية التى يقتحمها هؤلاء الخصوم، هى قائمة على التواطؤ مع أحد الطرفين، كيداً وعنتاً، وأذى للطرف الآخر بغير حق ولا سبب مشروع! على أن ذلك لا يعفى القاضى من البحث والتحرى وشدة التدقيق، فلعل هذا الخصم الثالث جاد، ولعله صاحب الحق دون المتنازعين جميعاً!

ولقد كان من أثر هذا فى نفسى أن أكره إليها الدخول بين متجادلين، ولو فى شأن عام، ولو فى قضايا العلوم والفنون والآداب، فيما يقع عليه الخلاف بين الباحثين والكتاب. ولكنى رأيت أن حجتى، فى هذه المرة، واضحة، وأن سلطانى فى الأمر مبين. بحيث

لا يستطيع أحد المتنازعين أن ينكره أو يكابر فيه، ويعتريه بشيء من الشك كثير أو قليل، إذاً فمن الاثم أن أسكت وخاصة إذا كان النزاع إنما يتعلق بالشأن العام، وعلى الأخص إذا لم يكن بيني وبين أحد الطرفين نزاع ولا خصام!

ولقد كتب صديقي الأستاذ المحقق أحمد أمين في «الثقافة» مقالا ممتعا، يدعو فيه إلى استغلال فن السرور. ومما جاء فيه:

«مع الأسف ألاحظ أن كمية السرور في الشرق قليلة. كما لاحظت من قبل أن كمية الحب في مصر والشرق قليلة. وليست تنقصنا الوسائل، فجونا جميل، وخيراتنا كثيرة، وتكاليف الحياة هينة، ووسائل العيش يسيرة، ومصايب الشرق من الحرب أقل منها في الغرب، ومع هذا كله لا تزال كمية السرور في الشرق أقل.

«أكبر سبب لذلك في نظري أن الحياة فن؛ والسرور كسائر شؤون الحياة فن، فمن عرف كيف ينتفع بالفن استغله واستفاد منه وحظي به، ومن لم يعرفه لم يعرف أن يستغله وشقي به.

وسرعان ما انبرى له صديقي العظيم الدكتور طه حسين بك، فأثنى على الفكرة، بادي الرأي، ثم راح يشكك في إمكان تحقيقها، ثم ما لبث أن أطلق العنان لمداعباته العذبة الفخمة، التي تَسُحّ في الوقت نفسه فنا وأدبا. وجعل يتساءل عن الجماعة التي ينبغي أن تضطلع بتنظيم «فن السرور»، وهل تكون من بين علماء

النفس ، أو من بين علماء الاجتماع ؟ وبعد أن دوخ الفكرة بشدة الترجيح بين هاتين الفئتين، انطلق يحيرها بين «جهات الاختصاص» إذا صدق هذا التعبير الديوانى ، فاذا هى قد ضلت المسالك جميعاً فلن تجد إلى مثابتها السبيل !

وأخيراً ، وأخيراً جداً ، رأى الدكتور طه بك (باشا الآن) أن يعدل بالحديث إلى ماهو أرفق وأقوم ، وأجدى وأنفع ، وأيسر كلفة ، وآكد تحقيقاً ، قال حفظه الله :

« ومن المحقق أنى لم أكد أفرغ من قراءة مقال الأستاذ أحمد أمين وأتخيل الآفاق البعيدة التى تمتد أمام اقتراحه أو أمام فكرته، حتى أخذنى الحسد ، ورغبت فى ألا يستأثر من دونى بإنشاء فن السرور وأبيت إلا أن أكون مثله صاحب فكرة خطيرة ، وداعياً إلى إنشاء فن خطير . فأمليت هذا المقال لأدعو به إلى إنشاء فن الحزن، وأنا أبرع من الأستاذ أحمد أمين وأمهر فى التصور . والفن الذى أريد إنشاءه لا يكلف مشقة ولا جهداً ، ولا يحتاج إلى تأليف لجان، ولا إلى تحديد اختصاص ولا إلى نشر مقالات . وإنما يحتاج إلى شيء واحد يسير جداً ، هو أن تنظر فى الحياة المصرية ، ثم تعود إلى نفسك لتفكر فيما رأيت . وأنا ضامن لك بأنك ستجد فى هذا النظر وفى هذا التفكير ، مصادر حزن لا تنقضى ، وألم لا يزول .

« وإذا كان السرور خيراً لأنه يرفه عن النفس ، ويحبب إليها الناس ، فقد يكون الحزن خيراً أيضاً ، لأنه يدعو إلى العمل ويدفع إلى محاولة الاصلاح » اه .

وبعد، فلست أعرض لما اقترح الأستاذ أحمد أمين من إنشاء فن السرور، ولا أمتدح الفكرة ولا أهجنها، وعلى ذلك فليس بيني وبينه أي نزاع، وقد كفيت المؤونة من هذه الناحية، والحمد لله، بقيت الناحية الأخرى، أعني فكرة الدكتور طه بك حسين، وهي التي تدعو أو يدعو هو بها إلى إنشاء فن الحزن. فهي التي نكثر عليها الحديث، والله المستعان.

وفي رأيي أن صديقي الدكتور طه قد غلط مرتين لا مرة واحدة. غلط بدعوته أولا إلى إنشاء فن الحزن، وغلط بزعمه ثانياً أن إنشاء هذا الفن لا يكلف مشقة ولا جهداً، ولا يحتاج إلى تأليف لجان الخ ..

ولا أدري كيف غاب عن صديقي أن فن الحزن فن قديم، ولعله من أقدم الفنون. وما لنا نسافر إلى التاريخ البعيد، فنتقرى الأخبار من نقوش الآثار، وحسبي أن يعلم الدكتور أكثر مما أعلم أن الحزن كان في صدر الإسلام فناً له خطر غير قليل. وأظن أن أحداً لا ينازعني في أن المراد بالحزن في هذا المقام إثارته وإذكاؤه، لأن أحداً لا يرتجل الحزن ارتجالا، ولا يستحدث الشجن استحداثاً.

أعود فأقول إن الدكتور أعلم مني بأن «الحزن» على هذا المعنى كان في صدر الإسلام فناً له خطر، والدكتور أعلم مني بأن ابن سريج، وابن الغريض كانا كلاهما نائحين، قبل أن يكونا مغنيين، وهما من نظر، وجلالة فن، وجودة صنعة، وبراعة أداء. وابن سريج والغريض بعد إذا غنيا وذهب لهما في الغناء صيت وذكر، لم يكن لحسنهما

ولا من أضرابهما ليخرج من تلحين الأصوات ، لتنوح بها النائحات ، فى جلى الحادثات .

وهذه كتب الأدب العربى بأخبار النياحات . فلندع إذاً هذا الحديث المعاد .

أما مصر ، فلها فى فن الحزن عرق عريق ، وخاصة فى العصر الحديث ، ولا يزال هذا الفن قائماً إلى الآن ، وإن جعل يقبل على الدثور ، مع الأسف العظيم ، مادمنا نرانا بحاجة إلى إنشاء فنون الأحزان !

لايزال فى مصر إلى الآن الندابات [1] ولا يزال فيها النائحات ، أو بالتعبير الشائع المعددات [2] أعاذنا الله وأعاذ القراء جميعاً من الحاجة إلى هؤلياء وإلى هؤلياء .

أما الندابات فجماعة من النساء يلقين تراتيمهن على نقر الدفوف فى قوة وعنف ، إذ النساء من أهل الميت يثبن على هذا النقر وثباً ، ويرقصن على هذا النبر ، لا ضرباً على أوتار العود ، بل لطماً على الخدود ، حتى يفرى أديمها ، وتهرى لحومها .

وأما النائحات المعددات فلا دفوف فى أيديهم ، ولا يصوتن بالعديد إلا فرادى . وكلما انتهين إلى موقف عج النساء جميعاً بالصياح ، وبكين فاستعبرن ، سواء فى ذلك أهل الميت ومن لا شأن لهن به من

---

(١) الندابات : ندب الميت : بكاه وعدد محاسنه ، والاسم منه الندبة بضم النون .
(٢) عدد الميت : بتشديد الدال الأولى ، عد مناقبه ووصفها .

المعزيات ، ويظل هذا ثلاثة أيام من وفاة الميت ، وكل يوم خميس ، ثم تختم هذه النياحات بيوم الأربعين .

ولقد فاتنى أن أقول لك إن المعددات منهن المحترفات ومنهن الهاويات . وإن جماعات الهاويات ليفعلن هذا احتساباً ، أومجاملة لأهل الميت ، أو مصانعة لعواطفهن إذا كان الدهر قدامتحنهن أيضا فى كريم . أما الندابات فلا يكن إلا محترفات .

ولكى تعرف مبلغ فن الحزن فى مصر ، والاسراف فى إذكاء عاطفة الأسى والشجن ، أنك كنت إذا سعيت صباح يوم الخميس فى أى حى من أحياء العاصمة ، رأيت الجماعات من النساء عليهن السواد ، وقد ضربن بالخمر السود على رءوسهن وعوارضهن . وفى أيديهن المناديل السود ، وهن يمشين على غير هدى ، حتى تصادفهن مناحة ، فينزلقن إليها ، مايعرفن الميت أو الميتة ، ولا لهن عهد بأحد من أهليهما أبداً . وذلك كله انتهازاً للفرصة السعيدة فى البكاء الحار ، وسفح الدمع السخين .

ولقد تجاوز فن الحزن المصرى نطاق التبكى على الموتى إلى سائر مواجع النساء ، حتى لترى كثيرات ممن يطلبن المناحات ، إنما يطلبنها ليعولن ويطرحن أثقالا من الدموع على مالا سبب له الموت ولا إلى الأموات . فما تكاد النائحة تؤذن بفترة الاستراحة entr'acte بعد الفصل ، حتى تقبل عليها النساء من كل جانب ، فليقين فى حجرها بالدراهم ، ويدعوها العامة «النقوط» . هذه تسألها أن تقول فيمن هجرها زوجها ، وهذه فيمن اتخذ عليها الضرة ، وهذه فيمن

مال بخت بنتها بزواجها من المضار غير الكفء ، أو بكيد حماتها وكثرة إيذائها ، وتلك فى خيبة سعى ولدها ، وأخرى فى سرقة حليها ، وما ادخرت من المال فى الدهر الأطول لليوم الأسود الخ . . .

وعند النائحة المعددة الكفء ما يزكى نار الأسى على كل هذا ، ويستدر الدمع الغزير ، فاذا لم يكن حاضرها شىء منه ارتجلته ارتجالا ، حيث تصبح صاحبة الشأن صياحا متداركا ، أو تبكى وتنشج حتى تسكن عاطفتها وترضى !

والآن ، والآن فقط ، لقد تفطنت إلى أننى ظلمت صديقى الجليل القدر الدكتور طه حسين ، فى ما لعلى قد عزوت إليه ، من قريب أو من بعيد ، تجاهله قيام فن للحزن متين القواعد ، ثابت الأصول ، مفصل الفصول : فالدكتور طه بك أجل من أن يتجاهل شيئاً ليعاز صاحبه فى الحوار !

وأكبر الظن أن الدكتور ، على علمه الواسع بفن الحزن القديم ، وعلمه الضيق بفن الحزن القائم فى مصر إلى الآن ، لم ير شيئاً منهما قادراً على أن يؤدى مطالب العصر الحديث ، وكذلك أسقطهما من الحساب . لأن العصر الحديث عصر الجماعات والشركات والقوميات لا عصر الفرديات التى لا تتجاوز أقطار الأشخاص . هو العصر الذى ينبغى أن تندب فيه المرافق العامة وتبكى المنافع القومية . وهذا حق لا ريب فيه ، وهذا هو الأشبه بتفكير أمثال الصديق العظيم .

بقى أن الدكتور ، مع هذا تراه يتهاون فن الحزن ، ذاهبا إلى

أنه يكفى أن ينظر المرء فى الحياة المصرية ، ثم يعود إلى نفسه ليفكر فيما رأى ، حتى يجد فى هذا النظر وهذا التفكير مصادر حزن لا تنقضى وألم لا يزول .

لا يا سيدى الدكتور ، فليس الأمر بهذا الموضع من اليسر اليسير ، فكلنا ينظر فى الحياة المصرية ، وكلنا يعود الى نفسه ، فيما رأى . ومع هذا فلم يشق أحد منا حنجرته بصيحة ، ولا صك له خداً ، ولا تبادر له دمع غزير ولا رقيق !

إذاً لم يبق لنا بد من قيام فن للحزن قوى محكم ، عظيم الخطر ، بليغ الأثر ، ما دامت المصالح العامة فى مصر لا تستقيم قناتها إلا بتوارد الأحزان وغليان الأشجان .

وإذا كان الفن القائم لا يواتى مطالب العصر ولا يحسن الترجمة عن حاجاته ، فلنعالج تحويله ، فى وفق أو فى عنف حتى يستطيع أن يقضى الحاجة ، ويبلغ الطلبة ، وينيل الأرب ، وذلك باطلاق أصوات النياحة فى الأسباب العامة ، بدل إرسالها فى الشؤون الخاصة ، ولنوع الندبة والتعديد فى ثكل الولد ، وهجر الزوج ، واتخاذ الضرة ، وسوء بخت البنت فى زواجها ، وشقوة الولد ، وضياع السبد واللبد ، الخ ..

ونصوغ الأناظيم فى انحطاط مستوى التعليم ، وتدهور الأخلاق ، وتعطل الشبان من حملة عليا الشهادات ، وإهمال الانتفاع بمساقط مياه الخزان والأعراض عن الجد فى استغلال الثروة المعدنية ، ومشكلة

القطن ، والغلاء المصطنع ، وأزمة الزواج بين الشباب ، وإيثار المحسوبيات على الكفايات . ولا بأس بفرض أنشودة الموظفين المنسيين ، فى زوايا المصالح والدواوين الخ . . . ، مما لو طوى الناظمون نسجه ، ورققوا لفظه ، وجود الملحنون لحنه ، وأجروه فى نغم بائس حزين كالصبا والرمل مثلا ، ثم أحسن النائحات أو النائحون ترتيله وتوقيعه ، لأحزن وأبكى ، وأشجن وأشجى ، وهيج الزفرة ، واستدر العبرة !

وكذلك ترقى سريعاً مرافق البلاد ، وتزول عنها أسباب الضعف والفساد !

وأرجو ألا تكون شخصية اللجنة التى يعهد إليها بهذا الاصلاح العظيم أو جهة الاختصاص ، مما يكف عن مباشرته أو يعوق تحقيقه .

ولعل من الخير فى هذا الباب ، أن يعجله بانشاء كرسى لفن الحزن الحديث فى كلية الآداب .

الموسيقى المصرية

قديم وجديد

من بضعة أسابيع سمعت من الراديو حديثاً لصديق المحقق الأستاذ أحمد أمين، أذاعته علينا محطة لندن.

وقد تناول الأستاذ في هذا الحديث وفي حديث قبل قديم الأدب وجديده، وعرض في الأخير عرضاً يسيراً للموسيقى، خلص فيه إلى أنها تحتاج إلى نبي جديد، كما أصبح الشعر يحتاج إلى نبي جديد.

وإذا كان الأستاذ المحاضر لم يطل الكلام في الموسيقى، ولم يجره على جهة التفصيل، فلغير الموسيقى كان مساق الحديث.

وأرجوا أن يأذن لي أن أتبسط بعض التبسط في حديث الموسيقى، وأن أتولى ما أجمل بشيء من التفصيل.

الموسيقى في حاجة إلى نبي جديد! نعم، هي في حاجة إلى نبي جديد، لو أن الأنبياء يبعثون لتقويم الأذواق وهدايتها الصراط المستقيم!

الموسيقى في أشد الحاجة إلى زعيم مصلح يهدي إلى الرشد، أو إلى قائد يفتح بالسيف ما استغلق على جهد الكلام!

في الحق، لقد أضحت حالنا من هذه الناحية في أشد الحاجة إلى الفتح المبين.

ولست أذهب بك، ياسيدي القارىء في التدليل إلى بعيد،

فلقد فتحت أخيراً إحدى كبريات الصحف فى مصر باباً تنشر فيه آراء الناس فى محطة الاذاعة المصرية ، ولو قد اطلعت على هذه الآراء فيما تذيعه المحطة من ألوان الموسيقى وفنون الغناء ، لتعاظمك الأمر وراعك ، وحير لبك ، وذهب بك منه العجب كل مذهب . وذلك بأن الكاتبين جميعاً ساخطون متبرمون متأففون . وليس عجباً أن يتوافق جمهور الناس على السخط والتبرم ، فان من الأشياء مالا يعجب جميع الناس ، بل إن منها لما يعجب أحداً من الناس ، بل إن مناط العجب هو أن نصف هؤلاء الساخطين المتبرمين ، إنما يسلقون المحطة والقائمين عليها بأحد الأقلام ، لأنها تردد على أسماعهم الغناء البالى القديم ، ولا تصغى الوقت كله للمستحدث الجديد !

أما النصف الآخر فيسلق المحطة أيضاً بأحد الأقلام ، ويرميها بكل عاب وذام ، لأنها تصدع آذانهم ، وتفرق أذواقهم بأسماعهم هذا المستحدث الجديد ، ولا تتحرر وقت الغناء كله للعتيق القديم !

ولقد تفترق أذواق الناس ، ولقد تتغاير أحكامهم على الأشياء ، وخاصة فى هذه الفنون الجميلة ، التى يقصد بها إلى التطريب والتلذيذ ، لقد يقع ذلك ، وهو واقع فى كل زمان ومترن . ولكن اختلاف الآراء واختلاف الأحكام على ما يتنغم به من فنون الموسيقى الآن ، ليس له شبيه فى أى زمان ولا فى أى مكان !

ذلك بأن المجموع فى كل أمة مهما اختلفت فيه أذواق الأفراد

وافترقت مذاهبهم فى ألوان الموسيقى ، فان هناك ذوقاً عاماً يجمع شملهم ويضم جمعهم ، فهم إذا افترقوا أو اختلفت مذاهبهم ، فاختلافهم إنما يكون فى حدود هذا الذوق العام . ومن هنا نجد الاختلاف فى هذا الباب يسيراً والافتراق رفيقاً ، وكان يفضل هذا كذا على كذا ، ويستريح هذا إلى كذا أكثر مما يستريح إلى كذا ، أما أن ماينشر على سمع هذا مما يشيع مطرب فى ذاك ويدخل عليه الأريحية وبالعكس ، كما هو الشأن فينا الآن ؛ فهذا كما زعمت لك عالم يقع له شبيه فى أى زمان ولا أى مكان !

وإن شئت بعد هذا أن تثبت كل شىء فى موضعه ، وتجرى عليه حكمه الصحيح الصريح ، فقل فى غير تردد ولا خشية : إن الذوق الموسيقى العام قد فقد فقداً فى هذه الأيام . فاذا أبيت إلا رفقاً فى الحكم فقل إن الذوق العام الآن فى حال من الثورة والاضطراب ليس من اليسير أن ينتهى منها إلى قرار .

كان يغنى البلد من أعقاب الجيل الماضى من أعلام المغنين المرحومين عبده الحمولى ، ويوسف المنيلاوى ، ومحمد عثمان ، ومحمد الشنتورى ، وعبد الحى حلمى ، وسلامة حجازى ، وغيرهم . وكان لكل من هؤلاء طريقته فى الغناء وأسلوبه ، ولكل منهم شيعته ومؤثروه على غيره . يلتمسون مجلس غنائه أنى كان ، ويطلبونه مهما يجشمهم الأمر من الجهد والمشقة ، ويرددون تغنيه إذا خلوا إلى

أنفسهم أو إذا خلا الصحاب من أهل المراح إلى الصحاب. ومع هذا لم يزعم أحد أن غناء غير من يؤثر ينشز على سمعه، أو يخمش هواجه، أو يفرق ذوقه، كما هو حادث الآن؛ بل لقد كان يسمع جميع الناس من جميع هؤلاء، فيسترحون إلى غنائهم، وقد يذهب بهم الطرب كل مذهب. وذلك بأن اختلافهم إنما كان في حدود هذا الذوق العام فهو لا يعدو إيثار فن على فن، واستجادة مذهب أكثر من استجادة غيره. على أنه في كل حال مستملح مستجيد. كانت تلاحين الملحنين قارة مطمئنة، تجري على قوانين مرسومة، وتجول في حدود معلمة مقسومة وكانت الأذواق كذلك قارة مطمئنة لا حؤول فيها ولا اضطراب؛ فلا يكاد غناء المغني المجيد يقرع السمع، حتى تراه قد سال من فوره في النفس، ونفذ إلى مجامع العاطفة، فأشاع طربا، وبعث أريحيه، أو حرك شجى وأثار شجناً.

وأرجو ألا تفهم من كلامي هذا أن الغناء في ذلك العهد كان جامداً لا يتحرك، واقفاً لا يتقدم، عاتياً لا يلين لتلوين ولا تجديد بل لقد كان مفتناً متلوناً متجدداً. ولكن في تلك الحدود التي رسمها الذوق العام. ولهذا كان التجديد يجري في لباقه ورفق، فلا ينشز على الأسماع، ولا تأذى به الأذواق، وناهيك بما صنع عبده الحمولي في هذا الباب وما صنع جد كثير!

وكيفما كان الأمر، فلقد كان بين ذلك الغناء وبين الذوق المصري إلف وبينه وبين النفس ود، حتى لكأنه لاحق بالفطرة، موصول بالطبع!

الموسيقى الحديث

والآن حق علينا أن نميل بالحديث إلى صفة الجديد ، وكيف جاءنا هذا الجديد؟

لهذا الانقلاب العنيف فى الموسيقى المصرية سببان :

أحدهما طبيعى ، والآخر صناعى . أما الطبيعى فهو تلك الثورة التى زلزلت عندنا كل شىء ، فلم تدع شيئاً من العادات ، والتقاليد ، والأخلاق ، وآداب السلوك ، والأزياء ، والفن والأدب ، وغير ذلك من مظاهر حياتنا إلا رجته بقدر كبير . وجمهور الناس مهرول مغذ إلى تقليد الغربيين فى كل جليل ودقيق ، فكان من الطبيعى أن يقلدوهم فى موسيقاهم ، كما يقلدونهم فى غيرها من شؤون الحياة .

أما السبب الصناعى ، فقد انبعث فى هذا البلد شاب موسيقى جمع إلى العلم بالفن رهافة الحس ، ودقة الشعور والقدرة القادرة على الابتكار والتجديد . وأعنى به المرحوم الشيخ سيد درويش .

كان المرحوم سيد درويش يلمح النبرة تقع فى بعض التنغيم الأجنبى ، شرقياً كان أو غربياً ، فيدرك أنها لو سوى بعض التسوية لأمكن إدماجها فى موسيقانا ، ولكان لها حلاوة فى الآذان ، وطرب للنفوس . وعلى ذلك أدخل على موسيقانا كثيراً من التناغيم الأجنبية وطبعها فيها . وسرعان ما تقبلتها الأذواق فى غير قلق ولا نفور .

كذلك أراد رحمة الله عليه ، أن يترجم بالموسيقى عن بعض المحسوسات فتقدم ، وكان علاجه لما عالج من هذا فى غاية الرفق

والتواضع . وكذلك قدر له فيما أراغ النجاح . ويطوى الردّى سيد درويش ، ويطوف بالبلاد طائف ذلك الانقلاب العنيف ، ويأبى الملحنون والمغنون إلا الموسيقى أفرنجية لا يشوبها شىء مما ألفت الآذان من قديم الزمان . وعلى ذلك راحوا يحاكون الموسيقى الغربية التى يسمعونها هنا وهناك ، ولكن كيف يحاكونها ولا علم لأكثرهم الكثير بما تتكىء عليه هذه الموسيقى الأفرنجية من القواعد والأصول؟

يحاكونها بأن يبدأوا بصياح مثل صياحهم ، ثم عدم الأذن للترانيم بان تأخذ سمتها ، بل المبادرة إلى ليها عن وجهها حتى تصك الأسماع صكا ، وتطير الأمزجة تطييراً ، فاذا بلغت غاية الجهد من الاضطراب ذات اليمين وذات الشمال ، وبين فوق وتحت ، ووراء وقدام ، وصلت بها صرخة تحكى ما يختم الموسيقى الغربية من الأذناب والأذيال . وكذلك تظن جمهرة ملحنينا ومغنينا أنهم يجيئوننا بموسيقى غربية لا يلحقها شك ولا ارتياب ، وما شاء الله كان !

وبعد ، فأما تنكير النغم ، وأماليه عن وجهه ، وأما الصراخ فى أوله وفى آخره ، فذلك مما لا يعيي على أحد ، لأنه لا يحتاج إلى علم ، ولا صلة بفن ، ولا علاقة له بذوق ، واذا هو احتاج إلى شىء من فساد الذوق ، فذلك موفور والحمد لله !

ومن هنا كثر الملحنون فى بلادنا كثرة أصبحت تجهد العدد ، فلا تكاد تسمع مغنياً حدثاً أو مغنية ناشئة إلا قيل إن هذه الأغنية

من تلحينها أو من تلحنه ، وكذلك رخص التلحين وأصبح ميسوراً لكل من شاء !

وعلى هذا تفتحت آذان ، وكذلك استدرجت اسم الموسيقى الغربية أهواء . ولا أرى الغربيين ، إذ يكتب عليهم أن يسمعوها إلا أشد تأذياً بها منا نحن المصريين !

تلحين رخيص ، وموسيقى رخيصة ، وفن رخيص . أما التحزن والتفجع فى هذه التلاحين ، وأما التميع وشيوع التخنيث ، فذلك ما نسأل الله السلامة منه للرجولة فى هذه البلاد !

ولقد تقول الرجل من كبار الملحنين فى ذلك ، فيجيبك فى خجل عظيم : وماذا نصنع ، وهذه البضاعة هى الرائجة فى سوق الغناء فى هذه الأيام ؟ وكذلك جعل هؤلاء الملحنون أنفسهم يتبارون فى هذا التشويه ، يحتون به عامدين على الفن وعلى الأذواق معاً مادام القوت يأتى من هذه السبيل !

ولكى تدرك مبلغ رخص هذه التلاحين وهوانها ، لاحظ أنك لاترى شيئاً منها يعيش حتى إلى اليوم الثانى ، وكيف لما ولد ميتاً أن يعيش ؟

أما الذين لا يزال هواهم إلى القديم ، فهم فى برم دائم وملل لايريم . فإن مايسمعونه اليوم هو الذى سمعوه أمس ، وسمعوه من سنة خلت ، ومن عشر سنين مضت ؛ ومن شيوخهم من سمعه

من ثلاثين وأربعين من السنين يتردد هـــذا الدهر الأطول على أسماعهم بنصه وفصه ، ولفظه وتلحينه ، وكل نبرة وتنغيمة فيه ، وكل ذرة للحلق على موقف من مواقفه ، وكل تكريشة تختم بها كل فاصلة من فواصله ، اللهم إلا مايدخله عليه المغنون من الخطأ والتشويه !

وليس هكذا ، أيها السادة ، يكون إحياء القديم . وليس بهذا التكرير المملّ إلى حد الازعاج ترضون هوى أصحاب القديم إلى القديم .

المراد بالقديم يا أيتها المطابع أو الأسطوانات ، هو الفن المصري القديم ، الفن السلس السهل الذى يتفجر رجولة ويسيل طرباً ، والذى يتحدث إلى كبد المصرى فى غير عسر ولا حاجة إلى ترجمان ، فيحرك فيه من ألوان العواطف ماشاء الله أن يتحرك ، ويثير فيه من الأريحية ماشاء الله أن يثور .

هذا الفن الذى لا يفتأ يتطلع إلى التجديد الرفق ، لاينشز على الآذان ، ولا تتأذى به الأذواق . وناهيكم بصنعة عبده وعثمان والمسلوب وأضرابهم ، عليهم رحمة الله أجمعين .

وبعد ، فالحق أننا الآن فى حال من البلبلة واضطراب الأذواق هى فى أشد الحاجة إلى مبعوث للموسيقى جديد . فليت شعرى هل يطول بعثته على الزمان ؟

بلاغة التلحين

كنا ، وما برحنا ، نشكو من هذه التطرية التى لحقت الغناء المصرى فى السنين الأخيرة ، بل لا غرو علىّ إذا قلت : عن شيوع التخنيث فى هذا الغناء ، لا نستثنى على ذلك نظم المقطوعات الغنائية ، فى بعض الأحيان ، ولا تلحينها ، فى كثير من الأحيان ، ولا أساليب أدائها فى أكثر الأحيان !

تسمع المغنى وكأنك تستمع إلى أنين عليل أو جريح ، أو حشرجة محتضر ، إذا استثنيت الصرخة الأفرنجية الأخيرة التى لا بد من أن تختم بها الأصوات فى هذه الأيام ، ولعلها الصرخة الأخيرة التى تشبه من المحتضر إيماضته الخمود !

ذل ، وتوجع ، وتميع ، وتسايل ، وتزايل ، واسترخاء لا يليق بامرأة فضلا عن صدوره من الرجال !

ومن العجب العجيب ، أنك لا تجد أثراً مطلقاً لهذا التخنيث فى غناء مغنياتنا ، وأغنى مغنيات الطبقة الاولى ، على وجه خاص ، فان غناءهن تشيع فيه القوة والرجولة ، اللهم إلا ما يستكرهن عليه بعض السادة الملحنين ! أما التميع والتزايل ، فأكثر ما تجده الآن فى أغانى الرجال . ومن أعجب العجب أن يكون صوت المغنى ، بطبيعته قوياً شديد الاسر ، فيأبى هو إلا أن يتكلف تطريته وإلانته ،

يحبس جوهره فى الحلق، وصوغ صوت له من سقف الحنك . ولا يذهب عنك أن الأصوات مما يمكن أن يصنع ويصاغ . وكذلك يتهيأ للمغنى أن يلين ويسترخى ويسيل . وإننى أؤكد لك ، ياسيدى القارىء ، أن أكثر من تسمع الآن ، من هذا الضرب من المغنين ، إنما يتنغمون بأصوات مستعارة ، لا بالأصوات الطبيعية التى تجرى فى الحلوق !

وأرجوك ، ألا تعجل بلوم محطة الاذاعة ، ولا بلوم هؤلاء المغنين ؛ فهم إنما يواتون نزوة تعتلج فى الصدور فى هذه السنين ، مع الأسف الشديد ، ولست أكتمك أنى ، من بضعة أسابيع ، سمعت نشيداً حماسياً ، جعل رئيس الجماعة يتكسر فى إنشاده ، ويتزايل فى إلقائه ، ويلين من صوته ، ما أسعدته القدرة على التليين ، حتى لقد ظننت فى أول الأمر أن هذا النشيد « الحماسى » إنما يغنى لحث الجند على الفرار ، لا لحثهم على الإقدام ، لولا مافطنت إليه أخيراً من أنه لا يصلح لهذا أيضاً ، لأنه يرخى الجوانب ويخذل الشوق ، وهيهات لمنخذل الساق الفرار ! وكل هذا إنما يتكلفه المغنى مطاوعة لذلك الطائف الكريم .

وبعد ، فإذا كان هذا سائغاً فيما خلا من الزمن ، وهو غير سائغ فى أمة من الأمم ، فى أى زمن من الأزمان ، فانه على كل حال غير سائغ فى هذا الوقت الذى نستنفر فيه الشباب لحمل السلاح .

ليس سائغاً ألبتة فى هذا الوقت الذى ندعو فيه الأمة شيبها

وشبابها ، رجالها ونساءها وأطفالها إلى الحياة العسكرية التى لا تعرف ترفاً ولا ليناً ، حتى تستطيع أن تلقى الشدائد ، مهما يكن لونها ، بالصبر والقوة والعزم الحديد .

وأخيراً ، يظهر أن أولياء الغناء فى مصر ، تفطنوا إلى أن هذا ، ولكن فى الأناشيد الحماسية فحسب ، أمر سخيف مليح . فماذا صنعوا ، يارعاك الله ، ليخرجوا أناشيد ترج النفوس رجا ، وتستحمس الشباب أيما استحماس . ولا تذر فى البلاد كلها فتى ولا شاباً ، ولا كهلا ولا شيخاً إلا قذفت به إلى الميدان ، ليروى غلته إلى الضرب والطعان . ما يبالى أن يقع من الموت الزؤام ، أو أين يقع من الموت الزؤام !

أتدرى ماذا صنعوا فى سبيل إدراك هذا المطلب الجسام ؟ لقد شمروا عن سواعدهم ، وشدوا متونهم ، وقووا عزائمهم ، وحدوا أنيابهم أرأيت الليث وقد تهيأ للوثاب ، أو « آخر نبق ليبتاع » كما يقول أئمة اللغويين ، وأطلقوا الحناجر بأصوات ترعب سكان المريخ ، لو كان فى المريخ سكان !

وليت لى حظا من البلاغة يهيء لى أن أصف لك بعض هذه الأناشيد الحماسية ! ولكنى عاجز أبلغ العجز عن أن أفعل . وكل ما أستطيع أن أصورها به لنفسى أن أذكر أيام كنا أطفالا ، وكانت العجائز يسلين عنا بفنون الأحاديث (الحواديت) ، حتى إذا انتهين إلى « أم الغولة » ونهوضها لافتراس العابر المسكين فى جوف الفلاة ، جوفن أصواتهن أشد التجويف ، وفخمن لفظهن أعظم التفخيم ، وقلن يحاكين زمزمتها ساعة قرمها وافتراسها : « هم أكلك منين ؟ »

وأرجو أن أكون بهذه الصورة قد أجدت التعبير عن أكثر هذه الأناشيد.

وصدقونى ، ياسادتى القراء ، إذا قلت لكم إن بعض هذه الأناشيد، قدألق ذات يوم وأناجالس ، وولدى الصغير بين يدى، وهو الآن فى طريقه إلى الثانية عشرة ، حتى إذا فرغ المنشدون من نشيدهم الحماسى أقبل على وقال : « يعنى يابابا متحمشناش » وفى سينه وشينه لثغة . فأجبته من فورى : « الحق علينا ياابنى اللى متحمسناش. يالله بنا نتوكل على الله ونتحمس ! » .

ماهذا أيها الأخوان الملحنون، وماهذا أيها الأخوان المنشدون؟ ولله أبو الشاعر يقول :

أوردها سعد وسعدمشتمل ما هكذا تورد ياسعد الابل

وما هكذا يكون الاستحماس ولا استنفار الشباب للقتال، بل إنه لاشبه بما كان يدخل به الذعر على قلوب الأطفال فى سالف الأجيال.

وبعد ، فليست البلاغة مقصورة على فن الكلام ، بل إن لكل فن جميل بلاغة ، فللتصوير بلاغة ، وللموسيقى كذلك بلاغة، وهكذا . فاذا خلا الفن من هذه البلاغه ، خرج مميحاً مؤذياً ، أو سخيفاً بارداً ، كما هو الشأن فى الكلام الفسل الركيك ، الضعيف التأليف ، سواء بسواء .

وأنت بعد، خبير بأن البلاغة قوامها الذوق ورعاية المقام . وهنا قد يقول قائل إذاجاز لك أن تنكر من الملحنين تلك الأناشيد

الحماسية التى يشيع فيها اللين والاسترخاء ، فكيف لك بأفكار هذه الأناشيد التى وصفتها بالقوة فيما تقدم من الكلام ؟

والواقع أن الأناشيد الحماسية كما تحتاج فى لفظها إلى الجزالة ، تحتاج فى نظمها إلى المتانة ، وتحتاج أخيراً فى تلحينها إلى القوة . نعم تحتاج إلى القوة القوية ، فذلك هو الأشبه بأيام البأس ، والدعوة إلى ملاقاة الأهوال . ولكن لعله ذهب عن ذلك القائل إن العنف لم يكن على الدوام دليلا على الشدة ، ولا كان الصراخ عنواناً لقوة الأقوياء ! بل لقد يدل هذا وهذا على الضعف والخور فى كثير من الأحيان . وإن من يظن أن المعنى الشديد لا يؤدى إلا باللفظ الصاخب العنيف ، وإن من يحسب أن الموسيقى الحماسية لا تصور إلا فى التلحين الصاخب العنيف ، لهو واقع فى خطأ عظيم ولأضرب لناشئة المتأدبين فى هذا الباب مثلا من أبلغ الأمثال : كلمة هادئة رقيقة وادعة . قالها رجل هادىء رقيق وادع . ولعله لم يبرعه فى هذه الخلال أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا صح أن هذا الرجل كان ممن شك السل صدورهم ، فقدر مبلغ حظ هذه الكلمة من الظرف والرقة واللين ، فليس أرق ولا ألين ولا أخف على الأذن من حديث مسلول ومع هذا لو تفطنت ، فانك واجد لهذه الكلمة من الترجمة عن القوة والسطوة والسلطان ما لا يكاد يدانيها فى ذلك كلام .

وجه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، يزيد بن سفيان على جيش إلى الشام ، وخرج يشيعه راجلا ، فتعاظم الأمر يزيد فقال :

يا أمير المؤمنين . إما أن تركب وإما أن أنزل فقال له الصديق :
ما أنا براكب وما أنت بنازل ! ثم أنشأ يقول : إن هى إلا خطى
أحتسبها لله وفى الله الخ ...

لعلك استشعرت ماوراء هذه الكلمة الرقيقة الوادعة من سطوة
وسلطان ، فإذا تعاظمك ، مع هذا ، أنها خلت حتى من صيغة الأمر
والنهى ، فاعلم أن من أسباب قوتها وبأسها إذا لم يكن السبب الوحيد
فى قوتها وبأسها ، هو خلوها من ذاك ، وكذلك يخبر قائده إخباراً
بأن إرادته قد مضت بما سيكون ، فليس له بتغيير الأمر يدان !

ونعود إلى القول بأن التدليل على القوة لا يحتاج ألبته إلى عنف ،
ولا إلى صراخ واصطخاب . فمن لنا بذلك الملحن البليغ الذى يصوغ
هذه الأناشيد فى قوة تنتزه عن مثل هذا الصراخ الحقيق بتخويف
الصبيان ؟

من لنا بذلك الملحن البليغ الذى يصوغ لنا هذه الأناشيد فى لحن
قوى يشيع فيه الطرب ، وأقول الطرب ، لأنه شرط أساسى فى مثل
هذه الأناشيد . فالطرب مما يثير الأريحية ويدعو إلى الاقدام .

ومما يحسن ذكره فى هذا المقام أن القوّة والطرب : كانا إلى
وقت قريب ، هما الطابع المصرى لما يصاغ من التلاحين فى هذه
البلاد ، كشأن التلاحين الشامية والتركية جميعاً !

وأخيراً فلست أشك فى وجود الملحنين القادرين على هذا ،
ولكن يظهر أنه قد جرفهم هم الآخرين هذا التيار مع الأسف العظيم .

فى السياحة

أذاع حضرة صاحب العزة أحمـــد صديق بك مدير مصلحة السياحة فى مؤخرات الشهر الماضى حديثاً قيما ، رمى فيه إلى حض المصريين على اتخاذ المصايف المصرية ، وايثار بلادهم بالأموال الجليلة التى ينفقونها فى البلاد الأجنبية فى كل عام ، وقد قدر هذه الأموال بأربعة ملايين من الجنيهات !

وقد عرض فى حديثه لمنشأ هذه البدعة ، بدعة خروج المصريين إلى البلاد الأجنبية لسلخ ما يتهيأ لكل منهم سلخه من أيام الصيف ، وعلى وجه الخصوص فى أوربا ، ورد هذه البدعة التى استحالت عادة إلى أن مصر لما كانت داخلة فى ملك الدولة العثمانية ، كان من المتعين على الحكام وأصحاب الأخطار فى البلاد أن ينتجعوا ، الفينة بعد الفينة ، مثوى الخلافة للأغراض المختلفة . وإذ كان جو القسطنطينية لا يوائمهم فى الشتاء ، فكان من المعقول أن يحرروا فصل الصيف لهذه الهجرة ، فجو الاستانة فيه جميل ، وهواؤها عليل . وجرى من دون هؤلاء على سنة هؤلاء بحكم المحاكاة والتقليـد . ثم تحولت دفعة المهاجرين شيئاً فشـــيئاً إلى بلاد الغرب ، حتى بلغت عدتهم عشرات الألوف فى كل عام ، وأصبح ما ينفقونه يعد بالملايين ،

وما أحوج بلادنا إلى هذه الأموال ، وخاصة فى هذه السنين !

ولقد حمل الأستاذ صديق بك حملة صادقة على أولئك الذين يهجرون بلادهم فى مطلع كل صيف ، شادين الرحال إلى أوربا فى غير حاجة تدعوهم إلى ذلك من طلب علم أو استقصاء بحث ، أو تحريك تجارة ، أو إنماء صناعة ؛ أو غير ذلك مما يخرج الناس من ديارهم ، ويضرب بهم فى غيرها من بلاد الله .

وإنني أؤيد حضرته بكل ما أملك من يقين ، وأؤكد أننا إذا استثنينا طلاب العلوم والفنون وبعض الأساتذة والأطباء ، لا نصيب أكثر من واحد فى كل مائة من هؤلاء الذين يطلبون أوربا فى كل عام ، وهذا على أسخى تقدير ، أقول لا نصيب أكثر من واحد فى المائة يضطره أى أمر من أمور الدنيا أو الآخرة إلى تلك البدعة التى تستهلك هذه الأموال فى كل عام .

أربعون ألف مصرى يطلب أكثرهم أوربا فى صيف كل عام . إذاً فتعالوا نتحاسب ، ولنكن فى حسابنا حق صرحاء وحق صادقين .

كم مصرياً فى العام يمضون إلى أوربا ليستقصوا بحثاً يفتح فى العلم أو الفن فتحاً ، وينقض بعض القواعد المسلمة فيهما نقضاً ، ويطير هم العلماء فى شرق الأرض وغربها كل مطير ! العفو !

ثم كم مصرياً من هؤلاء الأربعين ألفا يطلبون أوربا ليفتحوا بين يدى التجارة المصرية أسواق الغرب ، فلا تلبث حتى تغزوها

غزواً ، وتدفع ما سواها من التجارات دفعاً ؟ العفـــو !

ثم كم مصريا بين هؤلاء الأربعين ألفاً من يشخص إلى الغرب لينقل عنه إلا بلاده أدق الصناعات وأفخمها بحيث لا تستغنى بصنع أيديها عما يرد إليها من الغرب والشرق فحسب ، بل لتغمر بهذه الصناعة الأسواق في غيرها من البلدان ؟ العفو أيضاً !

ثم كم مصريا فى أولئك الأربعين ألفاً من تعاصت علته على جمهرة الأطباء فى مصر ، وطنيين وأجانب ، حتى حلفت الطبيعة بكل مؤثمة من الأيمان ، أن هذه العلة لا برء لها إلا فى فيشى أو أكس ليبان؟

حقاً ، لقد تجد بين هذه الجموع الكثيفة التى تتدفق على أوربا فى كل عام من تبعثه تجارته ، ومن تستدرجه الرغبة إلى تحسين صناعته ، ومن قد أثقلته العلة حتى تحير فيها طب الأطباء فى هذه البلاد ، فلم يجدوا بدأ من الإشارة على العليل بالشخوص إلى الغرب ، حيث الطبيب الاختصاصى العالمى ، أو حيث الينبوع الذى عقد الشفاء بمائه ، ونحو ذلك . ولكن قل لى بعيشك : كم عـــدة جميع هؤلاء وأولئك من النازحين إلى الغرب فى كل عام ؟ عشرة ! عشرون ! ثلاثون ! أربعون ! أى بحساب واحد فى الألف لا واحد فى المائة ! ، على ما قدرنا ، أسخياء ، فى بعض هذا المقال !

أستغفر الله ! لقد فاتنى أن أقدم السبب الرئيسى لهجرة هذا القدر الضخم من المصريين إلى الغرب فى كل عام . وهذا السبب تطالعنا به الصحف السيارة فى كل عام . وهل يقع إليك عدد من جريدة

فى مصر طوال أشهر الصيف إلا قرأت فيه : « يبحر (فلان) إلى أوربا تبديلا للهواء ، أو ترويحاً للنفس من عناء الأعمال » . أو نحو ذلك مما يدخل فى باب الترفيه والاستجمام !

وليت شعرى هل تستحيل بلادنا فى الصيف فرناً تشوى فيه الوجوه شيًّا ، وتفرى الجيوب فرياً ؟ أليس فى بلادنا الطويلة جداً والتى يسلكها النيـــل من أولها لآخرها ، والتى تطل على بحرين لا بحر واحد — أليس فى هذه البلاد كلها متنفس فى الصيف ، ولا متفرج من وقدة حره ، ومنتبذ عن أذاه وضره ؟ وأخيراً ، أليس مصايفنا من وسائل التسلية واللهو ما يريح النفس ، ويهيء الاستجمام ؟ بلى ! إن فيها هذا كله ، وفيها غيره من مطالب رواد الغرب فى كل عام !

إذاً فما سر هذا التجنى والبطر الجرىء على البلاد وعلى مصايف البلاد ؟

ودعنى أزعم لك ، أيها القاعد ، أن الكثرة الكثيرة من هؤلاء المهاجرين لا يطيب لهم العيش فى هذه الرحلات الغربية كما تتصور أنت ، وكما يصورون هم لك ، بل إنى لأتقدم ، غير متزيد ولا غال ، فأزعم لك أن كثيراً منهم لا يجدون فيها إلا ضيقاً ورهقاً ، فإن فى الغربة أولا لضيقاً ، وإن فى تغيير أسباب المعيشة فجاءة لعنتاً ورهقاً ، وناهيك بازدراء أطعمة لم تألفها ، والاضطراب فى بيئات لم تعرفها ، والتزام عادات لا عهد لك بها ، وأخذك النفس بأمور لم يسبق لك علاجها

ولا التمرين فيها ، وكيف بالمرء مع هذا إذا كان لا يحذق لغة القوم الذين يعيش فيهم ويضطرب بينهم ؟

وهذا إلى الهم بترك الوطن والبعد عن الأهل والولد وطول شغل النفس باهمال العمل ، إذا كان المهاجر من أصحاب العمل ، وهذا وهذا إلى مايجشم هذه الهجرة من ألوان النفقات ، وماتستخرج من جليل الأموال التي قد يستعان عليها بالاستدانة ، أو الانطواء في سبيلها على الضيق والعسر في سائر شهور العام !

ولقد يسقط الكثير من هؤلاء إلى باريس ، فباريس قبلة الكثرة من هؤلاء المهاجرين ، فيثوى في أحد فنادقها ، لايغادره إلا إلى مقهى ، أو ملعب من الملاعب ، أو مباءة من مباءات العبث ، ويظل مضطربه بين المواطن الثلاثة أو الأربعة طول مدة الاقامة هناك ، حتى يأذن الله في عودته ، ولقد يوالي الهجرة إلى باريس عشرين عاماً وهذا شأنه ، مايرى من باريس غير مارأى ، ولايعرف عنها أكثر عما عرف . الفندق ، والمقهى ، والملعب ، وما عسى أن تنزلق إليه رجله من مباءات العبث . وليس وراء عبادان بلد !

وبعد ، فاذا طلبت حقيقة السبب في هجرة كثرة هؤلاء المهاجرين إلى الغرب ، على ما فيها من كثرة النفقة ، وعظم المشقة ، واحتمال ماوصفت لك من فنون الضيق والعنت ، فهو لا يعدو الرغبة في التكاثر والظهور بالأبهة والفخفخة وتقليد المترفين من أصحاب الثراء ، فالشخوص إلى أوربا أصبح عند هؤلاء بمثابة الرتب وألقاب الشرف ، ولولا بقية من حياء لطبع هؤلاء على رقاع الزيارة :

فهارد القطولى
سافر إلى أوربا

على أن فى ترديد اسم أوربا كلما جلسوا إلى الناس، ولما سافرت إلى أوربا، وسنة ما كنا فى أوربا، وبينا كنا فى باريس الخ . . مما تعي به الطاقة ، مايغنى فى التعريف عن ألف بطاقة وبطاقة !

على أن مما نحمد الله عليه أنه على نصاعف عدد الذين يخرجون عن البلاد وازدياد عدتهم سنة بعد سنة ، فقد قل ، ولو فى النسبة ، عدد الحكائين منهم .

وللحكائين من هؤلاء فى الجيل الماضى عما رأوا فى رحلاتهم إلى الآستانة ولبنان حديث يروق ويشوق . ولعلنا نطالع القراء بنماذج منه ، فهو حقيق بأن يسلى عنهم بعض التسلية ، ويرفه عليهم فى وقدة الصيف بعض الترفيه .

وإلى الملتقى إن شاء الله .

الحكاءون

١

رجوت فى غاية مقال « فى السياحة » أن ألم بحديث الحكائين ممن كانوا يطلبون البلاد الأجنبية إذا كان الصيف . ولعلك تذكر أنى زعمت فى ذلك المقال أن غريزة المحاكاة والتقليد كان لها فى تلك البدعة الأثر البعيد .

كان الكبراء من رجال الحكم ومن على شاكلتهم يشدون الرحال إلى الآستانة فى مطالع الصيف وعلى رأسهم ولى الأمر نفسه . وجعلت العدوى تسرى حتى أصلب أهل الطبقة الوسطى فمن دونهم . فمن عز عليه السفر إلى الآستانة اكتفى بالشخوص إلى الشام . وكانت كلمة الشام تطلق فى مصر على ماندعوه الآن سوريا ، ولبنان ، وفلسطين الخ . . .

وكيفما كانت الحال ، فإن السائح إذا عاد إلى مصر ، جلس فى داره أياما للهناء ، وربما سبق أهله فزينوا باطن الدار وظاهرها فرحاً بسلامة القدوم ، وترى الناس يقبلون عليه أفواجاً ، يبدون له فرحهم بعودته سالماً ، وغبطتهم له ، بظهر الغيب ، على ما رأى وما شهد . ولا يلبثهم هو حتى يسألوه عن شىء من ذلك ، بل إنه ليعاجلهم بالحديث الطويل . وكلما أقبل فوج من الناس أعاد الحديث

وكرره، وهكذا حتى تنقضى أيام الهناء، إذ يخرج للقاء الناس فلا يضمه بهم مجلس، بل يكاد يلوح له اثنان يتحاوران فى شأن لهما حتى يفسح لنفسه بينهما مجلسا، ثم طفق يتحدث فيما رأى فى رحلته وما شهد، وما أكل وما شرب. ولقد تكون رحلته من يوم تحمله إلى يوم مهبطه مصر قد استهلكت ثلاثين يوما فقط، ولكنه مستهلك فى الحديث عنها ثلاثين عاماً!

ولقد ضاق بهذا جماعة من أهل الأدب والظرف، وبرموا به برماً شديداً. وكان على رأسهم المرحومان السيد محمد المويلحى بك، والسيد محمد البابلى بك، وغيرهما ممن لا يزالون فى الحياة، وصل الله فى أعمارهم، وأسبغ عليهم العافية؛ فقعدوا الجماعة الحكائين كل مرصد. وكلما تحركت فى مجالسهم شفتا حكاء، راحوا يبوخونه ويلتقونه بالنكتة الكاوية من جميع أقطاره، حتى يعصروه عصراً، وما زالوا بجمهرة الحكائين كذلك حتى أزعجوهم عن هذه الخلة، وعقدوا ألسنتهم عن الخوض فى هذا الحديث السمج المعاد! فالفضل فى كف هذا البلاء عن المجالس لهم، جزاهم الله خير الجزاء!

والعجيب أن الحكاء من هؤلاء سواء تحدث عن اصطنبول أو الشام فانه قل أن يلم فى حديثه الطويل العريض بالطبيعة، وما آثرت تلك البلاد من فتنة وجمال!

وقبل كل شيء ينبغى أن نفرق بين حكائى الشام وحكائى اصطنبول، فالحديث عن كل منهما مختلف عن الآخر أشد الاختلاف وسترى هذا من عرض الكلام.

وبعد ، فقد لا يكون من أخلاق الحكاء الكذب ، وقد لا يكون من خلاله التزيد . فاذا آنست من حديثه شيئاً من التزيد أو الغلو الذى ينبو على كل تقدير ، فاعذره فما كان الرجل ليضرب فى الأرض، ولا ليعانى من ألوان المشتقات مايعانى، ولا ليبذل فى وجوه النفقات ما يبذل ، ولا ليحتمل من آلام الغربة والغيبة عن الأهل والولد ما يحتمل ، كل هذا ليقول لك : إنه مشى على أرض كالأرض التى تمشى عليها ، أورأى السماء كالسماء التى تنظر كل يوم إليها ، أو أكل عنبا كالذى تأكله ، أوشرب ماء كالماء الذى تشربه الخ . . .

اللهم إن هذا الرحالة الجواد بالمال والنفس إذا دعت الحال فى سبيل الترف وتلذيذ النفس بأسباب الرفاهية ، ليرى نفسه ملزما بأن يأتيك بالجديد ، ويطالعك بالطريف ، بل بما يذهلك ويدخل عليك الدهش والعجب .

ولنبدأ بحديث رواد الشام ، وما أصابوا فى بلاد الشام : أما العنب فالعنبة لا تقل فى حجمها عن بلحة الزغلول . ولهذا ترى القطف منه أكبر وأضخم من عذق النخل . فاذا أنت قشرتها وعرضتها للهواء استحالت قما من السكر لا يميز بينهما إلا البذر ، فاذا لم يكن ثم بذر ، فالتمييز ضرب من المحال !

وهناك أنهار وجداول ، ماؤها أحلى من العسل وأبرد من الثلج، إلى آخر ما انتهى إلينا من صفة الكوثر فى الجنة . وهناك التفاح وما أدراك ما التفاح ؟ لقد تلق بالتفاح فى النهر أو الجدول ، وسرعان ما تتناولها مقشرة وقد شطرها لك الماء أربعة شطور ، فاذا قذفتها

فى فمك استحالت شرابا ولكنه زلال ، وخمراً ولكنه حلال !

وأما الخوخ ، فلا يقل فى الحجم عن ثمر الجوز الهندى . وهل تراك تحرك فكا لتمضغه مضغا ؟ بل إنك لتترشفه ترشفا وتعب من عسله عبا ! وأما البطيخ فما تنوء واحدته بالعبقريين الشداد !

وأما المشمش ، وأما التين ، وأما الكمثرى ، وأما وأما مما تخرج الأرض وما تعالج الأيدى من ألوان الفطائر والحلوى ، فعد ذلك مما يتجاوز الجهد ولا يتسع له نطاق الكلام !

ولقد زعمت لك ، فى بعض هذا المقال، أن الحكماء من هؤلاء قل أن يلم فى حديثه الطويل العريض بالطبيعة . والآن ذكرت ، وأستغفر الله مما عرانى من النسيان ، فإنهم يعرضون للطبيعة ، وفضل الطبيعة . فان أحدهم ليصف لك ما كان يصيب فى وجبته من لحم الضأن والطير والسمك والخضر والحلوى والنقل والفاكهة الخ... ، حتى ليخيل إليك أنه قام وحده بالتهام مطعم كامل ، أو أنه طهى له سوق خضار تزاد عليه صوانى الكنافة والبسبوسة والهريسة ، وما شئت أو لم تشأ من الفطائر والحلوى، وإياك أن تنسى صينية « الكبة الشامى » التى تقرب إليك فى صدر الطعام !

وبعد أن يعرض على سمعك لا على عينك ولا على شفتك هذه القوائم أو هذه « المونيهات » menus تراه يحلف لك بالمؤثمات من الأيمان ، أنه لا يكاد يمضى نصف ساعة على كل هذا الذى خضم وقضم ، وافترس والتهم ، حتى يحس إلحاح الجوع ، بل حتى يحس أن معدته تتنزى فى جوفه تنزياً بعد أن اعتصرها شدة التحلب على الطعام!

ولعمرى ، هل كان هذا كله إلا بفضل جودة الهواء ؟ أعود فأستغفر الله ! فلقد كان هؤلاء الحكاءون يذكرون الطبيعة ، بل لقد كانوا يشيدون بفضل الطبيعة ، ولكن فى العـــون على سرعة هضم الطعام ! ياسبحان الله ! وهل ثمة شيء وراء الطعام ؟

وبعد ، فلقد خرج لنا مما مضى من القول أولا : أن بدعة قضاء جمهرة المصريين الصيف أو فترة من الصيف ، إنما كان متجهما شهوة المحاكاة والتقليد ، اللذين ما برحا شائعين فى خلالنا ، مع الأسف الشديد ، مهما عادا بالضرر العظيم : وثانياً : شدة الرغبة فى الأطراف والأغراب بالتزيد والافراط فى المبالغات ، إظهاراً للاستئثار ، دون القاعدين ، بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب إنسان ! وثالثاً : إفراد الطعام وكل ما يتصل بشهوة البطــن ، واختصاصها بالوصف بين كل ما يرى المرء وما يصيب من السياحة فى بلاد الشام . ولو قد جعلوا شطراً من حديثهم لوصف ماحبا الله تلك البلاد من سحر وفتنة ، أولما وثقوا من حبال المودة بيننا وبين جيرتنا الـكرام ، أو لذكر مايلقى القوم من عنت ورهق وأذى تحت الحكم التركى فى تلك الأيام ، لماكان لحديث الحكائين شيء من تلك الفسولة والابرام !

ولقد رأيت أن حديث الحكائين من رواد الشام قد استغرق المساحة المقسومة المقال ، فلنرجىء حديث روادا صطنبول إلى وقت آخر ، أرجو أن يكون قريباً إن شاء الله .

الحكاءون

٢

اصطمبول — ١

وترى أننى خالفت الكاتبين إلى رسمها بالصاد لا بالسين ، وذلك لأجارى منطق الناس كافة ، لثقل النطق بالطاء بعد السين الساكنة. ولقد يكتبونها فى بعض الأحيان « اسلامبول » فاذا نسبوا إليها (فى الكتابة لا فى النطق) كتبوا « الاسلامبولى » على أنهم إذا تكلموا قالوا : « رأيت سى محمد الاصطمبولى » ، وسافر سى حسين الاصطمبلى » الخ . . .

ومن أسماء هذا البلد القصطنطينية ، والاستانة وفروق (وهذه لا أعرفها إلا من شعر شوقى بك عليه رحمة الله) ؛ ودار السعادة على ألسن العرب و « دَر سعادَتْ » على ألسن الترك والمتتركين. وحقيق بمثوى الخلافة الاسلامية أن يكون كل هذه الأسماء . ولا تنس مثوى الخلافة الاسلامية فى عهد العباسيين فلقد كان من أسمائها : بغداد، بغذاد ، بغداذ، بغداذ، بغدان ، مدينة المنصور ، مدينة السلام الخ... ولقد قال المتقدمون : إن كثرة الأسماء دليل على شرف المسمى .

وبعد ، فلقد علمت أن كثيراً من المصريين كانوا يحجون فى مطالع الصيف من كل عام إلى دار الخلافة ، ثم يعودون إذا عادوا ، فيحكون ، شأن رصفائهم من رواد بلاد الشام .

على أن الحديث ، كما قلت لك فى المقال السابق ، مختلف بين الفريقين ، جد الاختلاف ؛ فانك قل أن تسمع من رواد اصطمبوله حديث « البقلاوة » ، أو « البلنج ضلمة » أو « الامام بيلدى » ، وأرجو أن تفخم اللام فى هذه بكل ما تستطيع من التفخيم .

إذاً لم تكن جمهرة أحاديث هؤلاء مما تتحلب له الشفاه ، ويتنزى على ذكره عصير المعد . بل لقد كان جديث «حكائيهم » فى السياسة العليا ، وفى شوكة السلطان ، أو الخليفة ، أو « الياديشاه » وماله من قصور ، تزخر بالعين الحور ، وما تخرج يلدز للمقربين من موائد تمد فى كل يوم بالآلاف ، تجمع كل واحدة منها عشرات الصحاف ، الخ . .

أما جنود السلطان وفيالقه ، وجيوشه وكتائبه ، فما « لو رمى بواحدة منها مناكب الأرض لم تثبت على قدم ؟ »

وناهيك بما أصاب هؤلاء الرواد من متع دونها ما وصف به نعيم أهل الجنة . وناهيك بما وقفوا عليه من أسرار السياسة ، سياسة الباب العالى التى سيدين لها العالم ، وتحشر بين يديها دول الأرض فى قريب من الزمان !

وقبل أن أعرض عليك نماذج من أحاديث أولئك الحكائين ، أرى لزاماً أن أقرر أن عيش الحر فى تلك البلاد ، فى عهد السلطان عبد الحميد ، لم يكن إليه سبيل بحال من الأحوال . وبحسب المرء

أن يرفع بصره إلى قصر من القصور السلطانية ، أو يحرك لسانه بكلمة واحدة فى السياسة ، أو يذكر الجيش ، ولو بالخير ، أو ينطق باسم عبد الحميد يريد به أى إنسان كان يحسبه شيء من هذا ونحوه لتخطفه « الخفية » (١) خطف العقبان . وسرعان ما تلق به فى مطبق (٢) يظل يتخلج فى ظلامه الأيام الطوال ، حتى يأذن الله بطلعة المستنطق (٣) فاذا قضى أياماً أخر بين السين والجيم وقف المسكين على مفترق الحظوظ ، فاما إطلاق ، وهذا هو الفوز الأكبر ، وإما أمر بترك البلاد إذا لم يكن من أهلها ، وهذا هو الفوز نمرة ٢ ، وإما ترك له فى السجن ونسيان ، حتى يأذن الله بالفرج بعد عام أو أعوام ، وإما نفى فى بعض قواصى الولايات ، وإما إلقاء فى البسفور ، حيث يفرح له فى بطون الحيتان !

والعجب أن عثمانياً لم تطل خلافته كما طالت خلافة عبدالحميد . والأعجب أن استبداداً وعسفاً وتخريباً لم يقس فى تلك المملكة كما قسا الاستبداد والعسف والتخريب فى عهد عبد الحميد . ولم يخرج

---

(١) البوليس السرى أو كانوا يدعون رئيسهم « سر خفيت » ، ولما أعلنت الحرية فى سنة ١٩٠٨ مزق الاهلون فيهم باشا « السر خفيت » تمزيقاً ، وألقوا بلحمه مزعا إلى الكلاب .

(٢) السجن تحت الأرض .

(٣) عند الأتراك : المحقق .

عنها من ولاياتها ولم يقتطع من أملاكه كما خرج واقتطع فى عهد عبد الحميد . وأعجب الأعجب ، بعد هذا كله أن جمهرة المصريين لم يحبوا أحداً كما أحبوا عبد الحميد ، ولم يدينوا بالولاء الحار لانسان كما دانوا لعبد الحميد ، ولولا بقية تمسكهم من دين لعبدوه مع الله ، أو لعبدوه من دون الله ، والعياذ بالله ، وأستغفر الله العظيم !

وذلك الحب المتمكن من النفوس ، والمتغلغل فى القلوب يرجع إلى أسباب لا محل لبسطها فى هذا المقال . وكيفما كان الأمر ، فان السلطان عبد الحميد لقد بلغ من نفوس المصريين على الخصوص ، موضع التقديس والتنزيه . حتى إذا لاح فى خاطر المرء لائح من الأفكار لبعض حكمه وتصريفه ، أسرع فرده واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم !

ولم يكن أعوان السلطان على إدارة الشؤون وتصريف الأمور هم الوكلاء (الوزراء) ولا من دونهم ممن يشغلون عليا المناصب فى الدولة . بل لقد كان الرأى قسمة بين السيد أبى الهدى الصيادى (من مشايخ الطرق الصوفية) ، والشيخ ظافر (شرحه) وعزت باشا العابد . ولا أدرى ماذا كان منصبه ، ولا تنس نفوذ الباش مصاحب (الباش أغا) أو كبير الخصيان فى قصر السلطان . أما آخر من يتحدث على أمر من الأمور ، أو يرجع إلى رأيه فى شأن من الشؤون فهو صاحب الفخامة الصدر الأعظم . وكان يتقدم بحكم البروتوكول

على خديوى مصر فى تلك الأيام. ولهذا ظل المرحوم خليل رفعت باشا صدراً أعظم فى أكثر عهد السلطان عبدالحميد، لأنه لم ينطق فى الشؤون العامة بكلمة واحدة!

وعلى الجملة، فلقد أثمر هذا النظام كل ثمراته من إشاعة الدس والكيد، والسعاية والوقيعة، والبطش والتنكيل، وإهلاك أصحاب الكفايات أو إبعادهم، وتقريب الجواسيس (١)، وإطلاق أيديهم فى أرزاق الناس وأعمارهم. وأضحت الرشوة هى السبيل إلى نيل الحقوق وإلى غصب الحقوق على السواء. وتبع ذلك ما ينبغى أن يتبعه من جذب العقول، وفقر الجيوب، وتقاص الأفكار، وضمور الحريات، وأسرع الفساد إلى جميع المرافق، ولحق الخراب عامة البلاد، ولم يبق عامراً فى الدولة كلها إلا «الجيب الهمايونى» الذى تعصر له الرعية عصراً كل صباح ومساء، فى ضرائب لا يتناولها الحصر ولا يدركها الإحصاء!

ولقد جرى الولاة فى ولاياتهم على هذه الأساليب، وكذلك المتصرفون فى متصرفياتهم، والسناجق فى سناجقهم، وسائر العمال فى أعمالهم. وكيف لهم بالعيش إذا كانت وظائفهم وأرزاق من قبلهم من الجند تحبس عنهم الأشهر بل السنين؟

---

(١) قدم السيد جمال الدين الأفغانى من الآستانة، فقيل له كيف رأيت؟ قال: رأيت نصف القوم جاسوسا على النصف الآخر.

وولى هذا ما يجب أن يليه من ضعف الدولة ووهنها ، وعجزها عن حماية أرضها وتمكين سلطانها فى ملكها ، فجعلت ولاياتها تنسلخ منها واحدة فى إثر واحدة ، حتى بلغت عدة الولايات التى خرجت عن حكمها فى عهد السلطان عبد الحميد وحده قرابة الثلاثين !

ومع هذا وهذا وذلك يأبى الحكاءون إلا أن يشيدوا فى المجالس بما أصابوا فى دار السعادة من المتاع وما تقلبت فيه أعطافهم من النعيم ، وما شهدوا من مجد الدولة وسلطانها ، وما اطلعوا عليه من أسباب قوتها وبأسها ، وما انتهى إلى علمهم من أسرار سياستها التى تعيي الأفكار وتعز على الأفهام ، وإن كانت ثمراتها الضخام ستجنى بعد أعوام أو بعد أيام !

ولقد استهلكت هذه المقدمات التى لا بد منها القدر المقسوم لهذا المقال ، فلنرجىء عرض نماذج الحكائين الاصطمبليين إلى يوم آخر إن شاء الله .

الحكاءون

٣

اصمبول — ٢

كان بائع غرابيل يجول فى الطريق هاتفاً بغرابيله ، فدعا به رجل واستنزله حمله ، وسأله أن يحل وثاقه ، وينثر الغرابيل بين يديه نثراً ، ففعل الرجل ، وجعل « الزبون » يعجمها واحداً بعد واحد ، ويطيل النظر فى تفقدها ، ويكثر من جسها وغمزها ، حتى إذا أتى عليها جميعاً ، عاد إلى تفقدها وجسها وامتحانها ، وما زال يفعل ذلك ويكرره حتى استهلك فيه الساعات الطوال : والرجل ينظر إليه فى غيظ وحنق ، لما أضاع من وقته وامتهن من سلعته ؛ حتى إذا انتهى اختياره إلى أصلبها خشبا ، وأجودها جلداً ، وألحمها نسجاً ، وأحكمها شداً ، قال له : بكم هذا الغربال ياشيخ ؟ فرأى الرجل أن يكافىء كل هذا العناء بالاغلاء فى الثمن ، فقال : بخمسة وعشرين قرشاً ! فقال له فى دعة وفتور : بثلاثة قروش تعريفة ! فثار ثائر الرجل ، وضرب الأرض باطار الغربال ، فوثب حتى صك ناصيته ، فأعاد الضربة بأشد مما ضرب فصك الغربال ناصيته بأشد مما صك ، ومابرح الغيظ يفعل به هذا ! والسابلة يجتمعون حوله من كل مذهب ليطالعوا

هذا المشهد العجيب ، حتى شدخ الغربال رأسه ، وأسال دمه ، فصاح فيهم : أيها الناس ! أمنتظرون أنتم حتى يقتلنى هذا الغربال ؟

ولا أكتمكم ، يامعشر القراء ، أن هذا القلم كثيراً ما ينشز علىّ ويجمح ، وتستصعب على سياسته وضبط عنانه . ولقد أسوقه فى طريق فينحرف الفنى إلى غيره . ولقد أرسم المقال نهجاً محدوداً ، فيأبى إلا تعدى الحد والعدول إلى نهج آخر حتى ينتهى فى بعض الأحيان إلى الغاية التى يبغيها هو ، لا الغاية التى أطلبها أنا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

ومن هذا البلاء الذى امتحنت به من هذا القلم الجامح المتمرد ، أننى بدأت مقال الحكائين على أن يجرى كله لحال أو قصر فى فنون من التسلية والتندر ، فى هذا الحر وهذه الحرب ، خيبة الله عليهما جميعاً ، وإن كنت لا أتزيد ولا أعدو الصدق أبداً . فاذا هو ينتظر لى بشبح عبد الحميد ، وحكم عبد الحميد ، وحكايات من كانوا ينتابون الآستانة فى عهد عبد الحميد ثم إذا هو يمعن فى هذا الطريق إمعاناً لم يدخل لى يوم بدأت الحديث فى تقدير ولا تصوير !

والآن كيف الرجوع إلى النهج الذى بدأنا بسلوكه ، وكان ، بحمد الله ، بين الحدود واضح الأعلام ؟

كيف لنا بهذا وقد التوت السبل ، وغشت السياسة وجه الطريق بما هو أحد من الحسك ومن شوك القتاد ؟

أفترانا نستعدى على جماح هذا القلم جمهرة القراء ، كما استعدى النظارة على غرباله صاحب الغرابيل ؟

أريد مفاكهة وتندرا ، ويأبى على القلم إلا خوضاً فى ظلمات عبد الحميد ، وما كان يعانى من ظلمه رواد الأستانة من المصريين وغير المصريين ؟

اللهم إنه ليس من الرأى التصدى لكبحه وهو فى حمى ثورته ، بل الرأى كل الرأى فى مجاراته وإلانة قياده ، وإظهار المطاوعة له ، حتى تفطر حدته ، ويطامن من جماحه ، وحينئذ يتهيأ صرف عنانه إلى وضح الطريق . وكذلك نمطى فى المقال على اسم الله العلى العظيم .

ولقد حدثتك فى المقال السابق عن بعض ماجرى من المحن على دولة الخلافة باستبداد عبد الحميد ، وظلم عبد الحميـــد ، حتى لقد انسلخ عنها فى ذلك العهد الأشأم قرابة ثلاثين ولاية ، وإن شئت قلت ثلاثين مملكة .

قلت لك إن المصريين لم يحبوا أحدا كما أحبوا عبد الحميد، ولم يدينوا بالولاء لأحد كما دانوا لعبد الحميد ، حتى لقد خالط حبه اللحم ولصق بالعظام ، وجرى فى أعراقهم مجرى الدم . فلم تجر بسوء حكمه على الاسلام محنة ، إلا جعلوها موضع منة ، ولا دب إلى جسم الدولة بظلمه فساد إلا أحالوه على صلاح ، فاذا غم عليهم الأمر ولم يهدهم إلى الرأى طول التعسف فى التأويل والتعليل ، أحالوا الأمر إلى الحكم التى تعلو على أفهام العباد !

وإن من الانصاف أن نقرر أن أشد الناس كانوا استحماساً فى هذا الباب هم سلالة الترك المتمصرين . وكان زعيم هؤلاء جميعاً شيخاً واسع الغنى يسكن فى بعض أطراف القاهرة ، ولا أسميه ولا

أعين مسكنه، لكيلا أدل عليه. رحمه الله وغفر لنا وله.

كان هذا الرجل أوهذا الزعيم العظيم، حين أدركناه، فى حدود السبعين. وكانت داره الواسعة مثابة القصاد ونجعة الرواد. يؤمها فى كل ليلة جماعات الظماء إلى أخبار الباب العالى، وماعسى أن يكون قد أجد لدولة الإسلام من مفاخر ضخام!

فاذا كان عيد الجلوس السلطانى رصعت الدار بمصابيح تخطف الأبصار، ووشيت بأذكى الورود وأنضر الأزهار، وصدحت الموسيقات بأحلى الأنغام، وقرب للفقراء أشهى الطعام من لحوم الأنعام، ووقف البك بالباب يستقبل جماعات المهنئين الداعين لجلالة الخليفة بالبقاء على السنين حتى يربى عمره على المئين، وغنى فى الليل أعلام المغنين، ونثرت بدر الدراهم على جماهير المحتشدين، من الموزين وغير الموزين!

وقلت إنه يقف بالباب فى تلقى الهناء من الوافدين. وإنه ليكافىء هناءهم بالشكر والدعاء، كما يصنع أى امرىء فى أسباب مسراته الخاصة وأفراحه العائلية. وذلك لما يشعر به، أو مايريد أن يشعره الناس من أن له سهما، ولو ضئيلا، من شؤون السلطان أو من شئون الدولة، يهيىء له تقبل الهناء، والإثابة عليه بالشكر والدعاء. وكيف لا وقد كثر كل حبه وولائه وإخلاصه على اليادیشاه؛ وهو عند الباب العالى مطلع الرأى ومتنزل السر، على الرغم من بعد الديار، وشط المزار!

ولا تظن أن هذا الرجل كان فى هذا الباب فذا منقطع النظير.

فى فتح داره لجماعات الاصطمبليين ، فلقد كان نظائره كثيرين . وإنما أفردناه بالذكر لأنه كان أكبرهم سناً ، وأبعدهم شهرة ، وأوسعهم غنى ، وأقدرهم على الوصف وتفخيم التصوير .

وبعد ، فما يكاد يخيم الغسق حتى تحتشد دار صاحبنا ودور أمثاله بالوافدين للاستخبار ، والاطلاع على ما أجد الباب العالى من جلائل الآثار !

واعلم أولا أن كل شىء يجرى على الدولة لا بد وأن يكون برأى السلطان وتدبيره ، ودهائه وجبروت حيلته ولو بدا لك فى هذا الأمر كارثة ، ورأيت منه مصيبة واقعة ، وبليه لاحقة. وهل بعد قوة السلطان قوة ، أو وراء دهائه دهاء ؟

ولعمرى ، ماجاءت البشرى بانسلاخ ولاية من تلك الولايات الثلاثين ، أو وقعت على الدولة بلية من إحدى الدول الغربية ، كما احتلت الجنود الفرنسية بعض جماركها أو تذعن لبعض المطالب ، ماحدث شىء من ذلك ونحوه ، إلا قال قائلهم : « دى سياسة افندم » فيزر صاحبه على إحدى عينيه ويهز رأسه ويقول : دى سياسة كبير » فيصيح الثالث : « أمال أفندم — لازم باديشاه هو اللى عاوز كده . إذا كان هو مش عاوز ما كانش يحصل . إيش عرفنا إحنا ؟ دى سياسة فوق عقول ! » .

وسرعان ما تشرق وجوه الجماعة ، ويتطارح الهناء وتتصافح الأيدى ، وتتضام الصدور إلى الصدور ، وتبسط الخدود لتحيات الثغور !

والآن وقد هدأت ثورة هذا القلم ، بما ناله من الجهد والتعب ، نستطيع بحمد الله ، أن نصرف عنانه إلى حيث نشاء ، فهلم إذاً إلى معاودة الحديث فى الحكاثين والله المستعان : وإذا كنت سأقتصر على إيراد حكاية واحدة ، فلعلك واجد فيها أفخم وأضخم ، وأبلغ وأعظم ، من كل ما انبث وانبسط ، وشاع وذاع ، وملأ الطباق ، وسطع فى الآفاق ، على جميع ألسن الحكاثين ، من يوم عبد الحميد إلى يوم الدين .

احتشد الجمع ، على العادة ، فى دار صاحبنا ، وجعلوا يتقاولون فى أمر الدولة ، وعظمة الدولة ، وقوة جيوش الدولة ، وسياسة عبد الحميد ، وشدة دهائه ، وبعيد مراميه الخ . . .

وبدا لبعض الحاضرين ، وكان مصريا ، أن يسأل سؤالا ، نخاف وجبن . والسؤال لا غنى عنه ، ولا مفر من العلم بالجواب عليه ، فخط المسكين إلى الزعيم عنقه ، وقال : « ولكن بس ، بس ! » أما باقى الكلام فكان يضطرب فى حنجرته اضطرابا ، لا يرتقى صدرا عنها ولا يرد . فقال له : بس ماذا ؟ مالك لا تتكلم ؟ ، فأعرض الرجل جفنيه ، وحد عزمه وقال ، وكان صوته هجس هاتف يجىء من وراء الأفق : « بس مسئلة الدونتمة (١) ، يعنى أن الدولة ليست معتنية بالدونتمة ! » وسرعان ما استلقى الزعيم على ظهره مقهقها وهو يقول فى نبرات مليئة بالتهكم والاستهزاء : نعم ! معاك الحق .

---

(١) الأسطول وكذلك يدعوه الترك والمتتركون .

إن الدولة لاتعنى بأمر الدونمة . » ثم اعتدل ، وألبس وجهه ثوب الجد ، وجعل يدير طرفه فى الحاضرين ، وتراه يتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، ويرفع بصره إلى فوق وإلى تحت ، وإلى قدام وإلى وراء . ثم قال : « فيكم من يكتم السر ؟ » فأجابوا جميعاً فى نفس واحد : « فى بير » !

« إذن فاسمعوا : لقد زرت المابين ذات يوم ، وأبديت لفخامة الصدر الأعظم مثل هذه الملاحظة ، فأظهر الموافقة لى ، والندامة على تقصير الدولة فى أمر الدونمة ، وغمز لى بعينه غمزة خفيت على جميع حاضرى المجلس . فلما هم الجميع بالانصراف ، ضغط على يدى واستبقانى . حتى إذا خلا له وجهى ، ولم يبق معنا أحد قال لى: « إذا انتصف الليل فامض إلى شارع كذا ، فاذا بلغت الموضع الفلانى فخذ على يمينك فى أول شارع ، ثم خذ على يسارك فى ثالث حارة ، ثم عد ثلاث حارات وادخل فى الرابعة ، وستلقى زقاقا على يسارك ، فاسلكه حتى تنتهى إلى خربة على يمينك . وستجد على مدخل هذه الخربة رجلا شحاذاً رث الثياب ، مقنع الوجه ، فافعل ما يأمرك !

« ومضيت فى الميعاد وإذا الشحاذ فى الانتظار ، فما أن رآنى حتى أجال طرفه فى الأرض والسماء . ولما أمن عيون الأنس والجن ، ودابة الأرض ، وحدق الطير فى أوكارها ، أسرع إلى زاوية فى الخربة ، وظل يفحص عن الأرض إلى أن انكشف له غطاء من الحديد فرفعه ،

ودفعه إلى مادونه ، وتدلى ورائى . وأعاد الغطاء فوقه . وتدلينا فى سلم عددت له ١٢٧ درجة . ثم انتهينا إلى دهليز طويل ، سلكنا منه إلى دهليز آخر أعرض وأطول ، ومازلنا ننعطف من دهليز إلى آخر ، حتى أفضت بنا خاتمة السعى إلى فضاء يزيد على التسعين ألف فدان ، وقد ازدحم « بالورش والترسخانات » العظيمة الهائلة التى لا نظير لها فى جميع الدنيا ، وإذا خلق من الناس لا يحصيهم إلا خالقهم .

ويكشف الشحاذ النقاب عن وجهه فاذا هو صاحب الفخامة خليل رفعت باشا الصدر الأعظم بنفسه ! وإذا فى هذا العالم ثلاثون مليوناً من الصناع معهم نساؤهم وأولادهم (يولدوا أو يستولدوا) لا يرى أحد منهم صفحة السماء أبداً . وكلما أتموا بناء مدرعة ، أو نسافة أو (فرديت) ، أو خطاف (دردبوه[١]) من شباك البحر (لا من شاف ، ولا من سمع) . حتى يأتى اليوم المعلوم ، وحينئذ تخرج الدونمة للقضاء على أساطيل الدول جميعاً !

الله أكبر ! الله أكبر ! ماشاء الله ! ماشاء الله ! نصر الله السلطان ! آمين آمين !

وسلام على فلان بك فى الحكائين ورحمة الله عليهم أجمعين .

---

(١) دردب : كلمة عامية تقابل فى الفصحى : أزلق .

مع ذبابة

قال لى صاحبي فى مستهل حديثه ، ولقد رويت لقراء « الثقافة » أحاديث عن صاحبي هذا ، ولكننى لم أقل لهم من هو ؟ ولا ماصفته ؟ ولم أكشف لهم عن أية خلة فيه ، ولم أشر إلى أى شيء يعطى القارىء ولو فكرة ضئيلة عنه ، حتى يحل أحاديثه من نفسه فى الزاوية التى تكافئها من التقدير . وفى الحق أننى ، فى هذا ، معذور ، فالرجل صديق من عهد طويل ، وما نكاد نفترق إلا على نية لقاء : فليس من اليسير أن أهتف من صفته بما عسى أن يكرهه ، وكيفما كان الأمر ، فانى أكتفى فى تقديمه اليوم ، بأنه رجل حاد الذكاء وحاد المزاج ، مرهف الحس ، دقيق الملاحظة ، سريع الخاطر ، حاضر الحكم على كل مايسنح له من الأشياء ؛ وكثيراً مايكون حكمه نقداً لاذعاً تدفعه ثورة النفس . وأنه بهذه الخلال ليشقى الشقاء كله ، ويتعب صاحبه التعب أجمعه !

يغضبه ويثير أنفه شيء يلحظه من الناس مما لا يبعث انتباهى ولا انتباهك ، ولو كان هـــذا الشيء مما لا يعنيه ولا يتصل به بأى حال . فإذا رأى مثلا بائعاً من هؤلاء الباعة الجوالين يحلف لمساومه بأنه باعه بأقل مما اشترى ، ثار ثائره ، وجعل يرغى ويزبد ، ويرثى لحال الزمان من لؤم أبناء الزمان ! وإذا أصاب ثلاثة يقفون فى غير

حاجة ، على الطوار (الرصيف) فيعوقون السابلة ، وقد يلجئون بعضهم إلى التدلى فى الشارع ، ليمضوا لطياتهم . فيتعرضون بذلك لتلك الفوائك العابرة التى أصبح لا ينقطع لها فى طارق القاهرة مرديء وأيته يقف بهم فيلومهم ويبكتهم ، ويضرب لهم أبلغ الأمثال على سوء عملهم ، وقلة ذوقهم ، وفداحة جنايتهم فى وقفتهم السمجة ، على من لاجناية لهم من الناس ، غير مبال بما يلقى من مثل أولئك الأرذال!

على أنه ، مع هذا ، طيب القلب ، صافى النفس ، لا يحتاج فى رده إلى الرضاء إلا إلى أيسر قدر من الاعتذار ، مهما يقع على شخصه هو من أسباب الاعنات والاغضاب ، وإن ليلة واحدة لكفيلة بأن تغسل صدره من كل ما أجن لامرىء من الحقد والاضطغان!

هذا صاحبى ، وبحسبك اليوم معرفة هذا القدر من خلاله . فلنمض فى حديثه على اسم الله .

زارنى ذات يوم من أيام هذا الأسبوع ، فكان أول مالحظته منه اطمئنان الوجه ، ووداعة النفس ، ورفق الحديث ; وهذه أشياء عهدى بها منه أقل من القليل .

وسألته عن حاله ، كما يسأل الصديق عن حال الصديق . فقال بعد أن حمد الله وأثنى على جليل فضله : لقد خضت عشية أمس ساعات ثقالا جداً ، لقد غاظتنى وأبرمتنى ، وفرقت نفسى ، وأطارت لبى ، حتى جازت بى أقصى حدود الصبر ، وعصفت بكل ما يقدر المرء

من الاحتمال ، فقلت له : « شنشنة أعرفها من أخزم » ، ولكن قل لى : كيف كان ذاك ؟

قال : استويت للعشاء ، وكنت شديد الجوع ، وبى من الشهوة للطعام مالا أجده فى أكثر الأيام ، وطعامى كما تعلم ، قل وكثر ، إنما يوضع بين يدى جملة لأصيب من أى ألوانه أشاء فى أية لحظة أشاء . وما كدت أسمى الله وأحور يدى إلى الصحفة بأول لقمة ، حتى رأيت ذباباً قد هوى إلى مهوى أصابعى من الصحفة ، فذببته ، فعاد لتوها إلى موضعه ، وجعل يلغ كما كان يلغ ، فعدت إلى زجره ، فعاد كذلك . فأدرت الصحفة لأصيب بما لم يصب ، فسرعان ما ذنب إلى حيث أرسل يدى ، وأقبل من فوره على شأنه ، مادفع إلا رجع ، ولا زجر إلا عاد ؛ فلم يسعنى إلا أن أرفع هذه الصفحة الملوثة الموبوءة ، وأنحيها بعيداً وأقرب غيرها ، وعوضى على الله . على أنه لم يعفها ولم يعفنى ؛ فلقد هبط منها مهبطه من أختها ، فأدارت الطبق كذلك فدار معه حتى استقر منه فى منحدر يدى . وكان الغيظ قد بلغ فى قصارى قصاراه ، فأهويت بكفى عليه لأقتله وأخلص من لؤمه وأذاه ، فتكسر الطبق شظايا ، وتناثر الطعام على الخوان ، وأصاب وجهى وثوبى منه رشاش ، أما الذباب فلم يكفه الافلات من هذه الضربة الساحقة ، بل لقد راح يمرع فى هذا الذى تطاير على الخوان ! فقمت عن المائدة وأنا أحلف بكل مؤثمة من الأيمان ألا أذوق فى ليلتى أى طعام !.

أويت إفراشى ، أرجو بهجعة خفيفة أن أستريح ولو من بعض

ما أجد. ولكن كيف لى بالنوم وقد قيل : « لا نوم لجائع » . ولو دار الأمر على الجوع وحده لهان الخطب ، فان وراء الجوع نار الغيظ وثورة الغضب ، وهذان وحدهما زعيمان بنفى المنام الليالى الطواله

وأفكر ، وفيم لعمرى أفكر إلا فى الذباب ، ولؤم الذباب ، وتهافت الذباب ، وأذى الذباب ، وخطر الذباب ، وما يجلبه الذباب من علل وأسقام ، وأرزاء جسام !

وجعلت فى مطرحى ، أسائل نفسى ، وقبل كل شىء أنبهك ياصديقى إلى ماتعلم من أننى عظيم الإيمان بالله تعالى ، وثيق الاعتقاد بظهر الغيب في بالغ حكمته فى كل جليل ودقيق من خلقه .

رحت أسائل نفسى : ترى ما حكمة الله الحكيم فى بث هذا الذباب ، وهو على ماترى لا يحمل إلا قذراً ، ولا يولى إلا أذى وضرراً ؟ ولكم يهدم ، بفرط تهافته ، الأعصاب ، ويشيع مالا يحصى من العلل والأوصاب ، ويبلغ وحده مالا تبلغ الحروب من أسباب الدمار والخراب ، ومع هذا لم يظهر العلم له أية ثمرة ولو دقت ، ولم يحل طول الزمان له منصفة ولو هانت . بل إنه لشر كله ، وأذى مستمر فى أوله وآخره ، وبلاء عظيم فى ظاهره وباطنه . لايدع الانسان فى لحظة من نهار ، فى اطمئنان ولا قرار . وكلما زاده عن وجهه أو يده ، أو عن طعامه أو شرابه ، عاد من فوره ، فأثبت رجله حيث كانت ، ماتنحرف قيد $\frac{1}{1000}$ من الشعرة ، لا من وراء ولا من قدام ، ولا ذات اليمين ولا ذات الشمال : بحيث لو استعان المرء بأدق الآلات الهندسية والفلكية ما بلغ هذا المدى فى تحرير المكان . ولقد يبلغ

من شدة تهافته أن يقع فى الطعام أو الشراب ، فاذا ترك وشأنه مات من الاختناق ؛ بل إنه ، على حدة حسه ، ليقع فى فنجان القهوة ، وهى لم تزل تتنفس بالحر الشديد من البخار . وما أرى أنه خرج من هذه المنية الشنيعة بشىء إلا أنه أغثى نفسك ونغص عليك مزاجك!

وبعد ، فأنت خبير بما يحمل هذا الطائر اللئيم من ملايين الميكروبات ، لاتفتأ تفرخ أشد العلل وأفتك الأوباء فى حين تعى السلامة منه ، ويعجز الأمن من أذاه . فاذا زعمت أن من الفواتك مايقتله ، فذاك بقدر ماتظل الأبواب والنوافذ محكمة الأغلاق ، حيث يغمر الغرفة ظلام ، ويدعو التنفس فى جوها إلى الاختناق حتى إذا فتحت النوافذ والأبواب لتجديد الهواء دخل من الذبان أكثر مما خرج ، وتطاير منها فى الغرفة أعظم مما هلك !

اللهم إن هذا بعض ما ابتلى الناس من الذباب من قديم الزمان أو من أول الزمان . فترى أيكشف العلم فيه مزية ، ويقع منه على منفعة تكافئ هذا القدر الهائل من الضرّ والفساد ؟

وجعل الذهن ، برغمى ، يدور فى هذا ملتمساً موطن الحكمة فى هذا الخلق الضار الشديد ، وكلما طلبت التفرج بالفكرة فى شىء آخر ، رأيت الأمر يتعاصى علىّ ، فقد استغرق حديث الذباب كل تفكير ، وملك على الذهن جميع مذاهب التصور والتقدير !

وفيما أنا من ذلك ، إذ قرع مسمعى طنين ذباب ، ولكنه أشبه ما يكون ، فى عنفه وقوته ، بهمهمة فهد أو بزئير أسد . فحولت وجهى وأرسلت بصري ، فاذا ذباب فى جرم الغراب ، ثم لم يرعنى إلا أن

جعل ينتفخ وينتفش حتى صار مثل الديك الرومى ، ثم مازال ينتفخ وينتفش حتى صار فى حجم النعامة ، لولا أن جسمه كله كاس بالريش لايعرى منه شىء ، ولولا أن رأسه موصول بما بين كتفيه لا يفصل بينهما عنق . فإذا حرك رأسه فمن أعلى إلى أسفل ثم من أسفل إلى أعلى ، كأنما وصل بين رأسه وكتفه بمفصلة ، ولولا أنه مزود فى مقدم صدره بخراطيم على حين ليست للنعامة خراطيم .

ويقبل هذا الذباب الضخم علىّ وهو يرفع رأسه ويخفضه ، فتداخلنى من الذعر ما أزاغ البصر ، وكان يخلع شعبة من شعب القلب . فبادرنى بقوله فى لسان عربى صحيح : لن تراع ! لن تراع ! فإن الشيطان إذا كان قد أزلق فكرك إلى هذا فإنه مازالت تعصمك قوة إيمانك . فقلت : الحمد لله رب العالمين . قال : فلو عملت بقول الله فى كتابه الكريم . « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ! » فقلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم . قال : والآن فاسمع يا هذا : ما أشد ذهابكم، يا بنى آدم، بأنفسكم وافتتانكم بعقولكم، وتتايهكم بهذا القدر الضئيل الذى تعلمون من ظاهر الحياة الدنيا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . »

تتساءل ياهذا فى حكمة الله ، جل مجده ، فى خلق الذباب وبثه ، وتنكر مايلون للناس من الأذى فى صحتهم وفى حياتهم ، وقد ذهب عنك أيها الأبله ، أن هذا الذى تنكر من فعل الذبان ، هو بعض حكمة الحكيم فى خلق الذبان . فلقد تعلم أنه لولا شيوع الأمراض والعلل ، لما مات أكثر من يموت من الناس فى كل

يوم وفى كل ساعة ، وإذاً لاطردت الزيادة فى عددكم ، يابنى آدم ، حتى تضيق بكم مساحة الأرض ، ويعجز بطنها وسائمتها عن مواتاتكم بما يكفى لبعض طعامكم وكسوتكم . فلا مفر لكم من التناحر والتقاتل فى التماس أسباب العيش ، حتى ليقتل الوالد ولده وتأكل الأم طفلها ، طوعا لغريزة استبقاء الحياة . وكذلك لايلبث العالم كله أن تسوده الفوضى وهى أهم عوامل الفناء . فالموت إذاً أيها الأبله ، هو أبلغ أسباب الحياة ! [1]

ثم إذا كنتم تنكرون ، أيها الأغفال ، ما ينشر الذباب فيكم أسباب الأمراض والعلل ، وتتمنون على الجبلة لو تعيشون الدهر فى صحة وعافية ، فمن أين ، لعمرى تعيش هذه الجيوش الجرارة من الأطباء والممرضين ، والممرضات ، وخدم العيادات والمستشفيات ، والصيدليين وعمال الصيدليات ، وأصحاب مصانع الأدوية والعاملين فيها ، ومنتجى المواد الأولية للعقاقير الطبية ، ومن وراء كل هؤلاء ممن يعولونهم ، ويعودون بهذا السعى على شملهم !

ثم لاتنس العاملين فى أسباب الموت من « الحانوتية » واللحادين (التربية) وباعة الأكفان ، وسواقى عربات الموت ، وغير أولئك

---

(١) رحم الله المتنبى إذ يقول :

سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها
منعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتى تملك سالب
وفارقها الماضى فراق سليب

ممن لا يصيبون الأرزاق والأقوات إلا بفضل الموت والأموات !

وسكت برهة ، ثم قال : أفآمنت الآن أن ذباباً واحداً أجدى على العالم ، وأعود بالخير على نظامه منك ومن عشرة من أمثالك ؟

فقلت : آمنت بالله .

ثم لم يرعنى إلا أن أرى هذا الخلق الكبير ، جعل يصغر ويضمر ، حتى عاد ذبابا فى جرم سائر الذباب ، ثم طار فوقع على رميق عينى ، وجعل يفحصه برجله فحصاً غير رقيق . وما كدت أتهيأ للقيام ، حتى أدركت أنى كنت فى أحكم الأحلام !

وفرغ صاحبى من حديثه ، فقلت له : إذاً فقد آمنت بأنك فى هذه الحياة ، لا تساوى ذباباً ؟ قال : ولا عشر ذباب . وكذلك يكفينى الله شرور الغرور والافتتان ، وهما أشد مهالك الانسان .

فقلت : رحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

عواطف

لم أعثر فى معجمات ، ولا فيما وقع لى من تعبيرات المتقدمين ، أنهم كانوا يطلقون كلمة « عاطفة — عواطف » على مايطلقها عليه أهل هذا العصر الحديث ، وأعنى هذا الاطلاق العريض . فأصل العطف على وجه عام ، الالتفات . ومنه عطف إليه . عال ، وعطف الشيء : أماله وحناه . وتعطف عليه ، رق له وبره . وعطفت الناقة على ولدها : حنت ورد لبنها . ومن هذا المعنى ، فيما أظن ، جعلت هذه اللفظة تتسع فى إطلاقها حتى أصبحت تدل على نوازع النفس وأهواء القلب جميعاً . وكذلك تتطور الألفاظ مع اطراد الزمان ، حتى تكاد تلابس ، فى كل عصر ، معنى جديداً .

وإذا كانت لفظة « العواطف » تدل اليوم أكثر ماتدل على خوالج القلوب ولو اعج الكبود من هوى وصبابة . ووله لا حق ، وغمز على الحشا من عشق وتبريح غرام — فان هذه العواطف كثيراً ما يكون لها مثوى آخر غير القلوب وغير الكبود !

نعم ، لقد يكون لها مثوى آخر ، وإن كانت جمهرة الناس لم تأبه له ولم تلتفت إليه ، على أن من هذه العواطف ماهو أشد وأعنف ، ومنها ما هو أطغى وأجرف ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون !
لقد يروعك مرأى عاشق أدنفه الحب ، وبرحت به الصبابة ،

وقد هجره المحبوب، قلى أو تجنباً ؛ فبات المسكين يساهر النجم ، ولا يغمض جفنه عن تصفح وجه البدر ، لعله يصيب فيه بعض الغناء عن وجه الحبيب . ولعمرى ماهو بمغن عنه شيئاً ، وإلا فما هذه الأنفاس الحرى كأنما يتفرج بها من الحشا سعير بركان !

تشهد هذا المشهد ، فيخيل إليك أن هذا العاشق المسكين لا يرى الوردة وقد تخرجت من كمها ، والنرجسة وقد ضنت على ثدى أمها ، والنسيم وقد تلطف ، والجدول فى الروض ، وقد تعطف ، والأرج وقد شاع فى الجو وتردد . والهزار وقد شدا على الأيك وتغرد — اللهم إنه لا يشهد شيئاً من ذلك إلا ذكر به الحبيب . بل إنه ليرى هذا كله من بهاء الحبيب . ولو أنه أعار الطبيعة كلها بعض جماله ما سطع فيها بدر ، ولا تأرج زهر ، ولا ضحكت الورود على الأغصان ، ولا صدحت الفواخت على الأفنان. كلا ! بل لشاه كل جميل ، ولا ستحال دبوراً هذا النسيم العليل ! بل إنه لا يرى الحياة كلها إلا جحيما لا يطاق فيه العذاب ، ولا يرجى ، على الدهر ، منه ثواب .

لقد يروعك الأمر ، إذ تشهد هذه العواطف ، ويتعاظمك . وسرعان ماترثى للقلب وترثى للكبد ، أو سرعان ماتغبط القلب والكبد ، إذا استأثرا من دون سائر الجوارح. بجولان هذه العواطف التى تشقى المرء كل هذا الشقاء ، وتسعده أحياناً بجميع ذلك الهناء!

وإنى أؤكد أن من ظن هذا فقد ضل ضلالا بعيداً !

ولقد أسلفت عليك أن هناك ألواناً من العواطف تثوى إلى غير

الكبود وغير القلوب وأن منها ما هو أشد وأعنف ، ومنها ما هو أطغى على المرء وأجرف . وإنى ملم اليوم منها بثلاث فحسب : أولها عواطف البطن ، وثانيتها عواطف الغرام بالدرجة، وهذه مقصورة علينا نحن معشر الموظفين الحكوميين دون سائر العالمين . أما ثالثتها فحب الشهرة وذهاب الصيت .

ولعلك تظن بى القصد إلى المزاح حين أزعم لك أن للبطن والدرجة والشهرة عواطف تجيش وتترقرق . بل إنى لأزيد أنها قد تبلغ من بعض الناس مالم يبلغ غرام قيس بن الملوح بليلاه ، ولا هيام قيس ابن ذريح فى لبناه !

وأرجو ألا تظن أن هذا العاشق المهجور الذى طوى ليله وهو يساهر النجم ، ويتصفح صفحة البدر ، يذكر به الحبيب ، ويتمنى عليه اللقاء القريب ، بأشد حرقة ، ولا أعظم لوعة من هذا الذى يتشهى الأكلة الشهية، ويتمنى الوجبة الجنية . وإنه ليتمثل صينية البطاطس ، وقد ديفت بالطماطم والبصل ، ورصعت بالثوم ترصيعاً. أما ماجللت به من مزع اللحم السمين ، فجدير أن يزدرد بالشمال وباليمين !

ولا تنس هذا الطاجن الذى حشى رزاً معالجاً بالزبد ، وقد دفن الحمام السمين فيه دفناً ، وظل فى الفرن الهادىء ساعات ، حتى نضجت قشرته ، واحمرت بشرته !

وأما صفحة الكنافة فما أروع دلالها، وأحلى وصالها ، خصوصاً إذا فاضت سمناً وسكراً، وحشيت زبيباً وفستقاً وصنوبراً وغشى وجهها

بالقشدة الخالصة . وما شاء الله ! وسبحان من أحسن وتفضل ، والشكر لمن أنعم وتطول .

اللهم إن هذا العاشق الصب ليقضى ليله الأطول فى تمثل هـذا وتمنيه ، وله من شدة اللوعة زفير ، أحمى من نار السعير .

ولقد يعمد فى هيامه إلى باب الحاتى وكبرى المطاعم ، فيجد ما يسطع من ريح القتار ، أزكى مما تجد أنت من النسيم جاز بالروضة المعطار !

أفليس هذا وأمثاله محبين عاشقين ، بل محبين والهين ، لا يفتأون يشكون لوعة البطون ، كما يشكو غيرهم لوعة الـكبود ؟

أما حب الدرجة وما أدراك ما الدرجة ! الله أكبر ! هل سمعت بالسيل الجارف لا يصده حد ، ولا يثبت بين يديه سد ؟ وهل سمعت بالريح الصرصر العاتية ، تدمدم رائحة أو غادية ، فتمتلخ فى مغارسها الأشجار ، وتقتلع من مباتها الأحجار ، وتأتى على كل قائم بالخراب والدمار !

هو كل شغل القلب ، أستغفر الله ! بل إنه لحب قد استولى على كل نوازع النفس ، وملك جميع أقطار الحس حتى لقد تقول للصب المتيم ، لقد اشتد البرد يافلان فى هـذ الأيام ، فيجيبك من فوره : يشاع أن « لجنة الترقيات » ستعقد فى صدر هذا الأسبوع المقبل !

ولقد تقول لمتيم آخر : ما أهول هذه الحرب وما أروع فظائعها . فلا يكون جوابه إلا : أيجوز أن يرقى فلان إلى الدرجة الرابعة ولما يمض عليه أكثر من خمس سنين فى الخامسة ، فى حين أنى سلخت فيها ثمانيا ؟

ولقد تقول لأحد هؤلاء المتيمين الوالهين على الدرجة إن فلانا

رجل فكه حاضر البديهة ، حسن الحديث . فيكون رده : لقد رقى إلى الدرجة الثالثة فى العام الماضى . وهكذا ! . . .

وماله لا تكون الدرجة كل شغله ، وماله لا يجعل فى الدرجة حديثه أجمعه . أليست الدرجة هى عينه التى بها ينظر ، وأذنه التى بها يسمع ، ورجله التى بها يسعى ، ويده التى يعالج بها ماتعالج أيدى الناس؟

ولقد يكون العاشق المدنف من أصحاب القلم ، أو من المنتحلين لصناعة القلم ، فلا يستحى ، إذا لاح له شبح الدرجات ، من أن يكتب للناس : هل أدلكم على أكبر أديب وأعلم عالم ؟ إنه والله للوزير القائم . ولقد عقدت إمارة البيان فأضحى ولا يتعلق بغباره فيها إنس ولا جان . وأما من يليه فى هذه الإمارة ، فهو ، ولا ريب ، سعادة وكيل الوزارة ! وهكذا كلما انصرف وزير ووكيل ، وخلفهما وزير ووكيل ، ولو تصرم الجيل بعد الجيل !

ولعمرى ، لو قد ذكر الله تعالى أحد هؤلاء بعض ذكره للدرجة ، لرقى فى الآخرة درجة الصديقين ، وتبوأ مجالسه معهم فى أعلى عليين !

وأما غرام الشهرة فشأنه أعجب وأغرب . وإن فى هؤلاء المتيمين بالشهرة وذهاب الصيت لمن يرجو أن تعيد الحكومة شنق المجرمين فى الميادين العامة ، حتى إذا عدم الوسيلة إلى بعد الصيت ، وسيرورة الذكر ادعى على نفسه جرماً لم يقترفه ، وقتلا عمداً لم يجترحه ، ليحظى بالشنق على أعين الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء والأطفال .

ولهذا غرام الشهرة مذاهب وفنون لا يتسع للتصرف فيها هذا المقال . ولعل من أبدع وأروع ماقد رأينا فى الماضى القريب ، أن

خلقاً من الخلق مغرمون متيمون بأن يشتهروا بالعلم والأدب، فى حين ليست لهم وسيلة إلى شهرة فى العلم والأدب ، ولا ينعتهم أحد بعلم ولا أدب . إذاً فليزجوا إلى الصحف المقال بعد المقال لا يضمن شيئاً إلا تزكية أنفسهم، والاشادة بفضلهم ، والهتاف بتفردهم بالأدب والبيان ، وبراعتهم فى هذا كل إنسان !

على أنه أيضاً لم تظهر لهم شهرة ، ولم يسر لهم ذكر ، ولم ينعتهم بشىء منه أحد : إذاً فكيف الحيلة ، ياناس ، فى إطفاء هذه اللوعة ، وإبراد هذا الغرام ؟

لم يبق من سبيل إلى هواه إلا أن يهدم كل من يظن أنهم بسابقتهم وموضعهم من أهل الفضل والأدب ، يحولون بينه وبين مناه ، حتى يصبح وإياهم بدرجة سواء .

ولكن أنى له ذلك كذلك ، وليست له ساق يقوم عليها لهدم ولا لبناء ؟

ياسبحان الله ! وهل لا بد للتطاول من قدم وساق ؟ اللهم إن له فى النباتات المتسلقة كاللوف واللبلاب لمثلا جليلا ، وإذاً فليتسلق على كل مرتفع عال من الناس . فإذا عدم الهدم، لخذلان يده ، لم يعدم أن يؤذن بعلمه وفضله ، وأدبه وبيانه ، من هذا المرتفع السابق !

أصدقت ياسيدى القارىء ، أن هناك عواطف ليس جماعها القلوب ولا الكبود ، وأن هناك غراماً غير مايعهد الناس من الغرام، له سعير أحمى من كل سعير وضرام ألذع من كل ضرام ؟

على ابراهيم فى المرآة

لاشك أن المعروف عن جماعات الأطباء أنهم أهل إيثار وطيب نفس بالتضحية، بالغة ما بلغت، فى سبيل الواجب. ولكننى أراهم اليوم قد ظهروا بأشد مظاهر الأثرة وحب الذات. فلقد أبوا إلا أن يستأثروا دون سائر الناس بالدعوة إلى تكريم الدكتور على باشا ابراهيم!

اللهم إن الطب من مزايا الدكتور على ابراهيم حقاً، ولكنه ليس جميع مزاياه. فإذا كان للأطباء أن يحتفلوا به فى يوم من الستين فان من حق العلماء الموسرين من الثقافة الثمينة الغالية أن يحتفلوا به أيضاً، كذلك من حق نقده الفنون الجميلة أن يفرض لهم نصيب جليل فى الاحتفال بزعيم الناقدين. ولا تنسوا الدعاة إلى الاصـــلاح الاجتماعى، واخوانهم المضطلعين باثارة النشاط الاقتصادى، فان هؤلاء وهؤلاء ينبغى أن يخصوا بحظ من هذا التكريم كبير. وكذلك القول فى العاملين على إشاعة البر والنجدة، والاسراع إلى معونة الضعفاء العافين.

ولا ريب فى أن ممن ظلمـــوا بهذه الأثرة ظلماً بيناً أصحاب البداهة من أولاد النكتة النافذة، فما كان ينبغى أن يحرموا كذلك الاشتراك فى تكريم هذا الأستاذ العظيم!

وكيفما كان الأمر، فانه إذا كان حضرات الأطباء قد أبوا إلا حبا للذات، واستئثاراً بالدعوة إلى إقامة هذا الاحتفال، فإن الأعياد السبعينية والثمانينية وما يليها قادمة إن شاء الله، وحينئذ تستطيع هذه الطوائف المحرومة المظلومة أن ترد لحضراتهم الجميل!

وبعد، فلا ريب فى أن من ترامت إلى علمه عبقريات الدكتور على ابراهيم، وآثاره الضخام فى الجراحة، على وجه خاص، ولم يكن قد رأى شخصه، أو طالع اسمه، لا يمكن أن يتصوره إلا عملاقاً ضخم الجسم فارع الطول، لا يحيط النظر بمساحته جملة، ولكنه إنما يدركها بالتقسيط ولكن الله قادر على كل شيء، قد أودع كل هذه الصروح الشمخرة من العبقريات فى هذا الجسم اللطيف الدقيق:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وما شاء الله كان!

سيداتى، سادتى:

لا تنتظروا منى أن أبسط القول فى مواهب الدكتور على باشا ابراهيم، فقد كفانى المؤونة فى هذا حضرات الخطباء والشعراء الكرام. ولكننى أذكر حادثة واحدة تدل على مبلغ دقة هذا الرجل العظيم، وحرصه الغريب على أداء الواجب على وجهه، دون أن يفلته منه مقدار خردلة واحدة:

ذلكم بأننا من بضع سنين كنا فى الاسكندرية. وفى ذات عشية تواعدنا على اللقاء فى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى لنسافر

معاً إلى القاهرة على طريق الصحراء ، ليدرك امتحان كلية الطب وفى الوقت متسع كبير .

وسرنا ، على اسم الله ، فى سيارته طبعاً . وفى صحبتنا نجلاه الدكتوران العزيزان . وهنا لا أحد من إيراد هامش يسير من هوامش هذه الرحلة . وذلك أنه أعترضنا فى جهة الدخيلة منعرج كان يعالج بالرصف لأن أرضه قد هشت وأعلن مجتازوه بوجوب تخفف السيارات من راكبيها ، إلا أن يكون واحداً مثلا ، حتى لا تسيخ عجلاتها فى الرمال . ونظر بعضنا إلى بعض وتهيأنا للنزول ولكن الأسطى عبده كان ، على ما يظهر ، قد سبق إلى زنة الحمل ، فمضى قدماً ولم يرعنا إلا أن يجوز بنا الرمل ، ولم تكد العجلات ترسم فيها أثراً !

ولقد حمدت الله على أنى كنت معهم . ولولا هذا لاستحالت السيارة بالوناً وطلبوا القاهرة بطريق الجو الذى يفزع الدكتور من ذكر اسمه ، كما أن لى الشرف بأن أشاطره الفزع من هذا الاسم الكريم !

بلغنا بسلامة الله محطة شل ، فأفطرنا وأخذنا قسطاً من الداحة ، ثم استأنفنا السير واندفعت السيارة فى طريقها ، حتى إذا صرنا على نحو ثلاثين كيلومتراً من مينا هاوس فوجئنا بما لم يدخل قط فى الحسبان . فلقد وقفت السيارة فجأة ، وأومأ الأسطى عبده إلى دخان ينفس به خزان الماء دليلا على أن المروحة قد تعطلت . فجعل الماء يغلى فيه غلياناً ، وتدلى فكشف الغطاء ، فاذا السير قد انقطع ،

فشمر للعلاج بوصله وسرعان مااستحال الدكتوران حسن وعلى ، ممرضين يسعفان الدكتور عبده بمطالبه فى إجراء هذه العملية . هذا يناوله المخراز ، وهذا يثقف له السلك المثنى . ثم واصلت السيارة سيرها حتى إذا قطعت كيلومتراً أو بعضه توقفت ثانياً ، فوصلوا السير من جديد ، ثم مضينا بضع مئات من الأمتار . ثم توقفت إذ لم يبق فى السير فضل لوصل ولا التئام ، فجاءوا بحبل من تلك الحبال التى شدت بها سلال الفاكهة ، وأقاموه مقام السير . ولكن لم تمض السيارة طويلا حتى استرخى الحبل ، وفتر عن إدارة المروحة . وتدلينا كلنا أيضاً لمعالجة الأرض والتماس الحيل .

وقف الدكتور ووقفت بجانبه ، وإذا كان لى أن ألاحظ فى هذه الوقفة شيئاً ، فذلكم أنى على طول عشرتى للدكتور على باشا ابراهيم فانى لم أره قط فى حالة عصبية كالحال التى كان فيها ذلك اليوم ، بل أننى لم أكد أراه فى حالة عصبية مطلقاً .

ساكت لا ينبس بكلمة واحدة ، وإن كانت شفتاه دائمتى الاختلاج إذ يده لا تفتأ تخرج الساعة من جيبه ثم تسرع إلى ردها إليه ثم تخرجها ثم تدسها . وكذلك ظلت هذه الحركة الميكانيكية السريعة بغير توقف ولا لبث ولا فتور .

على أننى شككت فى أن يكون هذا النظر الشارد كان يفضى إلى صاحبه بموضع العقرب من الساعات بل الدقائق ، وأذن الله وانطلقت بنا السيارة بفضل بعض الحيل الميكانيكية التى أحمد الله على أنى لا أعرف فيها شيئاً !

سيداتى ، سادتى :

إلى تلك الساعة ، كنت أعتقد أن الدكتور على باشا ابراهيم ذاهب ليشرف على شأن الامتحان فى كلية الطب ، ويتفقد النظام ، حتى أقنعنى ذلك الموقف بأنه إنما كان ذاهباً لأداء الامتحان ، وأن أخشى ما كان يخشاه أن يفوته الميعاد المقسوم لحضور الطلاب ، فلا يؤذن له بالدخول ، فتفوت عليه سنة كاملة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وانحدرنا إلى شارع الهرم ، حيث سيارات الأجرة لا يحصيها العدد ، ولا يقوى عليها العداد ، ولكن الكيادة التى أبت إلا أن تحرُنَ فى جوف الصحراء ، أبت كذلك إلا أن تجمع فى الطريق العامر المأهول حتى كاد السائق لا يستطيع لعنانها ضبطا !

إذا لقد ضمن صاحبنا أن يصل إلى طلبته فى الميعاد بل قبل الميعاد . ولكن لقد غشى الجميع وجوم شديد ، وثنوا رقابهم حتى توسدت الذقون الصدور !

وهنا لاح لخاطرى شبح مرعب مهول : فصاحبى قادم على امتحان شاق عسير ! وكيف له يحسن الاجابة وهو على هذه الحال من ضيق الصدر ، وتكدر النفس ، وتفرق الفكر ؟ وبأى وجه تلقى مصر الأمم إذا رسب ، لا قدر الله ، على باشا ابراهيم فى الامتحان ، وعلى الخصوص إذا لم يكن له ملحق يتعوض به ما فات ؟

إذا ، فلا بد لهذه الحال من إسعاف ، أو من إنقاذ الموقف كما يقولون ! ويعيننى الله على أن أرفع رأسى ، وأنادى بقوة لم تعهد لمثلى :

ياباشا. فرفع رأسه ورفع ولداه رأسيهما وقال فى فتور: ماذا ؟ فقلت له فى حدة المغيظ المحنق : أؤكد لك أنى لا أعود إلى ركوب سيارتك هذه إلا إذا جئتنى بشهادة حسن السير . . . والسلوك !

وسرى عنه ، وطابت نفسه ، وجعل يضحك أو يتضاحك ، إلى أن افترقنا . . .

ولا أدرى إذا كان نجح فى ذلك الامتحان أو لم ينجح ، على أنه مما يطمئننى على نجاح صديقى أنى أرى جمهرة الأطباء العظام ، وعصارة أهل الفضل وأرباب الأخطار فى البلاد يحتفلون اليوم ببلوغه الستين .

ومما يزيدنى اطمئناناً أن الاحتفال معقود فى صميم الجامعة المصرية لا بجوار كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية !

سيداتى ، سادتى :

إن الله الذى حبا مصر بهذا النيل ، ووهبها هذا الجو الصافى الجميل ، وأطلع شمسها على الدوام آلقة وضية ، وجعل أرضها على طول الزمان ، منجبة سخية — لقد حباها كذلك بالدكتور على ابراهيم.

وإذا كان الدكتور على باشا إبراهيم إنساناً كسائر الناس فانه إنسان مخلد خلود هذه النعم الظاهرة . فهو مخلد فى آثاره ، مخلد فى بنيه وتلاميذه ، ثم فى أبنائهم وتلاميذهم . وهكذا إن شاء الله ، إلى يوم الدين ، وتبارك الله أحسن الخالقين !

ألقيت فى الاحتفال بالعيد الستينى .

احب أولادى وأكرههم

١ — أحبهم

تدعونى «الهلال» إلى أن أنشئ فى هذا الموضوع مقالا ، كأن لى فى أمر الولد شأناً غير شأن الآباء جميعاً، إذ شأنى فيه شأن الناس جميعاً ، اللهم إلا أن تكون قد تفضلت فنصبتنى نائباً عن كل والد فى الأرض من يوم كان الانسان إلى يوم يخلو وجه الأرض من هذا الانسان

إذا كان الأمر هكذا، فاننى باسم من تشرفت بالنيابة عنهم أقول إننى أحب أولادى أشد الحب، وأعطف عليهم أبلغ العطف، وأجد لهم من الرقة والرحمة والحنان مالا أجد لأحد فى العالمين . أحبهم لأننى أحب نفسى ، وهم بعض نفسى ، بل إنهم عندى لخير ما فى نفسى . هم عصارة قلبى وحشاشة نفس كبدى ، وأجمل ما يترقرق فى صدرى من منى وآمال ، وأبهج ما يطوف برأسى من حلم وخيال ، وقد تجسد كل أولئك أناسى تغدو على الأرض وتروح !

وإنى لأرى أولادى إذا حضروا ، وأذكرهم إذا غابوا ، فأجد من اللذة والسعادة والمتاع ، مالا تعد له كل ما فى هذه الدنيا من لذة وسعادة ومتاع !

أحبهم لأنى أحب نفسى ، وأتمنى لو يكتب لها الخلود فى هذه

الدنيا، وإذا كان الموت حقيقة لا مناص منها أبداً، فأولادى هم واصلو حياتى، ومطيلو أجلى، ومادو ذكرى، والمثبتون، على الزمان، لاسمى.

أحبهم لأنهم أول من يعيننى فى ضعفى، ويسرع إلى الاستجابة لى فى شدتى، ويرفه عنى فى شيخوختى، ويواسينى فى علتى، ويتلقى فى العزاء إذاهم القضاء بين الزفرة والبكاء.

أحبهم لأن اسمى، من يوم أموت، لايرد على خاطر أحدهم، أويجرى بسمعه على أى لسان، إلا بادر فسأل الله لى الرحمة وإسكانى أعلى الجنان.

وولد لى ولد، وكان عندنا بواب أربت سنه على المائة، فلما لقينى، وقد انتهى إليه الخبر كانت دعوته لى: «الله يبقيه حتى يحل عقدة كفنك!». ووالله مادعى لى بدعوة كانت أبرد على كبدى، ولا أحلى موقعاً فى نفسى من هذه الدعوة. وياليتها قد أجيبت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم!

ولقد قال بعض السابقين إن القرآن الكريم على كثرة ماأوصى الولد بالوالدين، وأمره بشدة البر بهما، والعطف عليهما، والطاعة لهما، لم يوص الوالد بشىء من هذا للولد ولا مرة واحدة، وذلك بأن الوالد غير محتاج إلى هذه الوصية أبداً، فالانسان يحب ولده كما يحب نفسه، بل لقد يؤثره فى أكثر الأحيان، على نفسه.

قال زيد بن على بن الحسين لابنه يحيى رضى الله عنهم: إن الله لم يرضك لى فأوصاك بى، ورضينى لك فلم يوصنى بك.

الوالد يسعى فى الحياة ويجهد ويكد، ليستريح الولد ويسعد وينعم. وإذا ألمت بالولد وعكة، استحالت فى قلب الوالد علة. وإذا ضربته العلة، مات أبوه كل يوم عشرين موتة، ضارعا إلى الله فى صدق وإخلاص أن يحول ما بولده إليه إذا لم يكن من الفدية مناص!

ولقد أرى الصغير صحيحاً معافى، ما به أثر لجهد أو وعك، ولكن نفسى لا تستريح إلا إذا أكثرت من حبه، وعد نبضات عرقه. ولقد يخرج إلى الطريق لبعض شأنه، فيمثل لى الشيطان اللئيم مكروهاً أصابه، فأحس قلبي يتمشى فى صدرى.

وأخيراً، فاننا معشر الناس، مهما تصف نفوسنا، وتطب قلوبنا. ونترك من خلة الأثرة فينا، ونرض أخلاقنا على وصاة الدين بأن نحب لاخواننا ما نحب لأنفسنا — إنا مهما نبلغ هذه المنزلة الرفيعة من الفضائل، لا نستطيع أن نحب لغيرنا أكثر مما نحب لأنفسنا، اللهم إلا أن يكون الولد. ومما يحسن أن يذكر فى هذا المقام أنه مما جاء فى القرآن الكريم ترغيباً فى الإيمان وتحبيباً فيه إلى القلوب، قول الله جل مجده:

« والذينَ آمَنوا وَاتَّبعَتهم ذرّيتُهُم بإيمانٍ أَلْحَقنَا بِهم ذرِّيتُهم وما أَلَتْنَاهم [١] مِنْ عَمَلِهِمْ من شىء [٢]. »

---

(١) التناهم: انقصناهم. (٢) سورة الطور.

وقال تعالى ذكره فى الحض على التقوى والتخويف من معصية الله ، والتحذير من مجانبة العدل والصواب :

« وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا . »[1]

وقد رأيت كيف أن الله تعالى فى الآيتين الكريمتين قد رغب بمحبة الولد وأرهب ، وبغض بالخوف عليهم وحبب .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ريح الولد من ريح الجنة » . وقال لأحد ابنى بنته : « وإنكم لتجبنون ، وإنكم لتبخلون ، وإنكم لمن ريحان الله » . وورد أنه حين جاءته البشرى بولد فاطمة رضى الله عنها قال : « ريحانة أشمها ورزقها على الله » .

ودخل عمرو بن العاص على معاوية ، وبين يديه بنته عائشة ، فقال : « من هذه ؟ » فقال : هذه تفاحة القلب » .

وقيل لبعضهم : « أى ولديك أحب إليك ؟ » فقال : « هما منى بمنزلة السمع والبصر ! »

وكان عبد الله بن عمر يذهب بولده سالم كل مذهب ، فلامه الناس فيه فقال :

يديروننى عن سالم وأديرهم   وجلدة بين العين والأنف سالم

---

(١) المراد بالقول السديد هنا هو ما ذهب إليه بعض المفسرين : مخالفة العدل والصواب . سورة النساء .

ومن أحسن ما قال الشعراء فى حب الولد، قول أعرابى وهو يرقص ولدة :

أحبه حب الشحيح ماله قد كان ذاق الفقر ثم ناله

إذا يريد بذله بداله

وقول أعرابية :

ياحبــذا ريح الولد ريح الخزامى بالبـلد(١)

وقول أعشى سليم :

نفسى فداؤك من وافـد إذا ما البيوت الجـديدا

كفيت الذى كنت أرجى له فصرت أباً لى وصرت الوليدا

وهذه الأبيات المنسوبة إلى حطان بن المعلى :

لولا بنيات كزغب القطا (٢) حططن من بعض إلى بعض

لكان لى مضطرب واسع فى الأرض ذات الطول والعرض

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عينى من الغمض

---

(١) الخزامى بضم الخاء وفتح الميم : نبت زهرة من أطيب الازهار .

(٢) الزغب بضم الزاى وإسكان الغين ، جمع : أزغب وهو فرخ القطاء والقطا جمع قطاة طائر فى حجم الحمام .

وقول بعضهم :

لقد زاد الحياة إلىّ حبـاً بناتى إنهن من الضـعاف
مخافة أن يرين البؤس بعـدى وأن يشربن رنقاً[١] بعد صاف
وأن يعرين إن كسى الجوارى فتنبو العين عن كرم عجاف(٢)

وأخيراً قول أعرابى يرثى ابنته :

ياشقة النفس إن النفس والهة حرى عليك ودمع العين منسجم
قد كنت أخشى عليها أن تقدمنى إلى الحمام فيبدى وجهها العدم(٣)
فالآن نمت فلا هم يؤرقنى تهدأ العيون إذ اما أودت الحرم

وبعد ، فهذا مايملك قلبي من الترجمة عن بعض حب الولد ، وإن مما يتندى من العواطف فى أطواء الجنان مالا يستطيع أن يبلغه القلم أو اللسان ! وذلك غير ما استعنت به من أقوال صدر من أعلام البيان ، وعلى رأسهم سيد الأنام . عليه الصلاة والسلام .

ب ــ أكرههم

نعم ! وأكرههم بقدر ما أحبهم . أكرههم لأنهم لولم يكونوا ماجهدت هذا الجهـد فى السعى عليهم ، ولا تمنيت هذا العناء فى

---

(١) الرنق الماء الكدر .

(٢) كرم : كريمات وصفا بالمصدر للمبالغة . عجاف : مهزولات

(٣) تريد تعرضها من الفاقة لسؤال الناس .

تربيتهم والترفيه عنهم ، بل لبقى لى فضل أتمتع به فى الحياة وأنعم .

أكرههم لأنهم لا يجزون ، من العطف علىّ والرفق بى ، ولو بنسبة واحد فى المائة من عطفى عليهم ورفقى لهم .

أكرههم لأنى إن استنظرتهم لم يصبروا ، وإذا واتيتهم لم يشكروا .

أكرههم لأنهم قد يدفعوننى إلى سوء الخلق ، والتحيف من المروءة . وحسبى فى هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الولد مبخلة مجبنة » .

أكرههم لما يحز من الآلام فى قلبى كلما شكا أحدهم أو ألمت به علة ، فكيف بما هو أكثر من ذلك مما يطير اللب ، ويخلع شعب القلب ، والعياذ بالله !

أكرههم لكثرة ما ألهب الذهن بطول التفكير فى حاضرهم ، وما يفرى القلب من الاشفاق عليهم فى مستقبلهم .

أكرههم لأنهم كثيراً ما يتعذرون على نصحى ، ويخالفوننى إلى بعض ما أنهاهم عنه ، مما يؤذيهم ولا يجديهم ، ويضرهم ولا ينفعهم . ويبادوننى بالغيظ والحقد إذا قمت لتأديبهم وبسط العقوبة الحق عليهم .

وبعد ، فأرجو إذا حققت النظر فيما قلت ، أن تستيقن أننى لا أكره ولدى كل هذا الكره ، إلا لأنى أحبهم كل هذا الحب .

الشحاذون المودرن

قيل ، والعهدة على الراوى ، إن مركباً اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، فجعلت تتقاذفه الأمواج ، وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويغترف من ماء اللج ما يثقله ، حتى لم يشك السفر فى أنه ، لامحالة ، غارق بهم . فراحوا يعجون بالدعاء إلى الله تعالى ، ويسألونه النجاة من هذا الهلاك . وكان أشدهم اجتهاداً فى الدعاء ، والضراعة والابتهال ، رجل يقول فى ابتهاله : يارب ، ماذا عسى لو هلكت أن يكون مصير زوجتى وأولادى السبعة ، وليس فيهم من يتكسب ، ولا من بلغ سن التكسب ؟ ثم ماذا عسى أن يكون مصير أختى المطلقة وولديها الصغيرين ؟ ثم من ذا الذى يعول أختى الأرملة وأولادها الأربعة ، وأنا أحمل الجميع ، لأنه ليس فيهم من يستطيع أن يعود على الشمل ولو بدرهم واحد ؟

أنا لا تعنينى الحياة ، ولكن كيف الحيلة بعد موتى، فى كل هؤلاء ؟

وما برح يرفع الصوت بهذه الضراعات حتى كاد يشغل سائر السفر بشأنه عن شأنهم ، وحتى كادت تذوب كبودهم من الرقة لحال عياله ، وسائر من يعول من آله . ويشاء الله أن تهدأ الريح ، ويسكن الموج ، ويسكن وجه الماء ، وتبلغ السفينة الشاطىء بسلام .

وما كادت قدم هذا الرجل تطأ الأرض حتى صاح : « والله

العظيم ، ما كانت لى قط زوجة ولا ولد ؛ ولا لى أخت أرملة ولا مطلقة ، وما علت أحداً فى الحياة غير نفسى ، ، وخيبة الله على الجاهل الأحمق المأفون !

ولقد سبق لى من بضع سنين أن أجريت كلاما فى الراديو ، فى الشحاذين التقليديين ، واستنظرت السامعين الحديث فى الشحاذين المحدثين (المودرن) .

وإذ كانت عدة هؤلاء تزداد فى هذه الأيام بنسبة هائلة ، وأساليبهم فى الكذبة تتنوع وتتلون ، فقد حق علينا أن نلم بحديثهم فى مقال .

على أننا قبل أن ندخل فى هذا ، نرى من الخير أيضاً أن نطوف ببعض القول من الشحاذين التقليديين ، وقد كادوا ينقرضون ويخلو وجه المدن الكبيرة منهم ، حتى يخلو على الناشىء ، على وجه خاص ، صورتين واضحتين للعهدين ، يستطيع بهما المقارنة بين الفنين : القديم والحديث ، وليقدروا مبلغ التطور العظيم فى أسلوب الشحاذة . هذا التطور الذى أصبح يكافىء ، بحق ، سائر نهضاتنا العظام !

كان الشحاذون ، ولا زالت منهم بقية قليلة ، يعتمدون فى المسئلة على إلحاح الجوع ، والعجز عن السعى والعود على الشمل ، بألوان من الأمراض والأسقام ، والنقص فى الخلقة ، والآفات المقعدة للمرء عن السعى والحركة فى أسباب الرزق ، فكان دعاؤهم فى الطرق ، وعلى أبواب الأضرحة ، وفى الجبانات فى الجمع والمواسم من نحو :

القسم عمع النقم ! هنيئاً لك يافاعل الخير ! عشاالغلابة عليك يارب ! سيد كريم أو ست كريمة تحنّ على العاجز يامحسنين ! الخ . . . .

ولا جدال فى أن دعوى الجوع والعجز عن الرفق بالبدن فى سبيل الرزق ، تحتاج إلى اصطناع مايثبتهامن بلى الثوب وبلى الجسم . وقد تعصب العينان لوشك ذهاب البصر بالرمد ، وقد يظهر النقص فى الخلقة بفقد الذراع الأيمن ، أو فقد أحد الساقين ، أو فقدهما جميعاً ، فلايسع الشحاذ المسكين إلاأن يزحف على الأرض زحفاً . فاذا لم يكن المولى جلت قدرته قد من عليه بهذه النعمة ، أو تلك ، مضى إلى رجل إخصائى كان مثواه فى بولاق ، وكانوا يدعونه الربيط فاذا كتب لك ، أو كتب عليك أن تجوز بدكانه فى الصباح الباكر ، رأيت خلقاً مزدحمين ببابه ، هذا يطلبه ليربط ساقه ربط العرج ، أوساقيه ربطة الكساح ، وهذا ليثنى ذراعه حتى لا يشك رائيه فى أنه قد فقد الذراع . وهذا ليشد له بعض جسده ويرخى منه بعضاً ، فهو ومن ضربه الفالج وأبطل نصفه بمنظر سواء . وهكذا !

وأنت خبير بأنه إذا كانت الأسقام والعلل والنقص الطارئ على الخلقة هى رأس مال هؤلاء القوم ، ووسيلتهم إلى الرزق ، بل إلى الجمع والادخار ، وإحراز الغنى ، وإدراك اليسار ، قدرت مبلغ تحاسدهم على العلل والآفات . حتى لتسمع من بعضهم إذا غبط آخر : « اللى بلاه يبلينا ياسيدى ! » ، وتسمع من غيره وقد أخذته الموجدة على غيره : « بيتكبر على إيه ، هو ماحدش انشل إلا هوه ؟ آدى ربنا يحرمه من الشلل فى طرفة عين ، ويشمت فيه العدو ! »

هذا ، بالاختصار كان سبيل الشحاذين القدامى ، أو الشحاذين التقليدين ، وتلك كانت وسيلتهم فى فنهم ، وسعيهم فى الرزق وجمع المال . أما الآن ، وفى عصر النهضة ، فمن النادر جداً أن تسمع مثل : اللقم تمنع النقم الخ . . . ، أو تسمع : رغيف عيش وصحن طبيخ ! أو تسمع : عشا العاجز عليك يارب . . ومن النادر جداً أن تسمع مثل هذا أو ذلك . فاذا قدر لك أن تسمعه فى الأزقة والدروب التى لا تسلكها عين البوليس ، ولا تقع الأصوات منها لسمعه ، وإلا لكان ، لا سمح الله ، فى الملجأ الكافل المثوى والمأكل والملبس متسع للجميع !

وإذا كان شحاذو الأمس لا يظهرون إلا فى بلى الثوب وبلى الجسم ، فشحاذو اليوم لا يظهرون إلا فى نضارة الشباب ، وبضاضة الإهاب ، وأناقة الثياب ، هم « ذوات » قد انحدرت النعمة عنهم . أو أنهم ما برحوا يتقلبون فى النعمة ، ولكن كرثهم من الطوارئ العاجلة ما أحوجهم إلى المعونة العاجلة . وأمثال هؤلاء لا يسألون رغيفاً ولا « صحن طبيخ » حاشا لله ! إنما يسألون نقوداً . ونقوداً قد تكون فى بعض الأحيان كثيرة . وماذا لعمرى يجدى الرغيف على من هبط القاهرة من الاسكندرية مثلا ، واستل الطراروں (النشالون) كيس نقوده . وماذا يغنى صحن الطبيخ من مات عنده ميت لا يجد ما يجهزه به ويحمله إلى مرقده فى مقبرة ؟ وماذا ينفع هذا أو هذا فى إكمال قسط المدرسة وقد حل ، وأوشكت إدارتها أن تطرد الولد طرداً بوتدعه عن طلب العلم دعاً ؟ ثم ماذا يفيد هذا أو هذا فى معونة

مدرسة تعلم اليتامى وأبناء الفقراء بالمجان ، ماتقتضيهم على التعليم والطعام قرشاً ؟ وهكذا ! . . .

وهؤلاء لا يلقون الناس بالضرورة ، فى الثوب الخلق، ولا بالوجه الشائه ، ولا بالجلد المتقيح ، بل إنه كلما عظمت أناقتهم ، وجمل سمتهم ، ونضر خلقهم ، كانوا أدنى إلى الصدق فى المسئلة ، وأدر لعطف المسئول ، ولا يذهب عنك أنه قد ورد فى الأثر : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس » .

وهؤلاء كذلك لا يتسكعون فى الأزقة ، ولا يزحفون فى الدروب، لأن سكانها لا يجودون إلا باللقمة ، ولا يخرجون للكشكول السائل إلا فضالة الطعام . وذلك عهد قد مضى، بحمد الله ، وانقضى، بل لاتراهم إلا منخطرين فى أغلى الشوارع وأحفلها بعلية الناس .

وكثرة هؤلاء لا يتعبون أنفسهم فى طلب الزبائن والاختلاف إليهم فى دورهم ، بل إنهم ليرتصدون لهم فى المقاهى أو على لقم الطريق، حتى إذا جاز الزبون بهم دعوه كما تدعوا بائع التفاح ، أو الخيار ، أو بائع الفجل ، أوغيرهم من هؤلاء الباعة المترفقين بأبدانهم السريحة سواء بسواء !

ومن هؤلاء من يعترضك فى الطريق ! ولا يستحى من أن يقول لك : « والله أنت ابن حلال لقد قضيت أكثر من ثلاثة أشهر فى البحث عنك ، وهأنذا قد أصبتك ، والحمد لله ! » ثم يفضى إليك بالمسألة . وثلاثة أشهر وهو يبحث عنك ولا يصيبك ، حتى أذنته

للصادقة وحدها باللقاء ! ولا والله مازاد على أن جعلك متشرداً ليس لك عمل ولا لك محل إقامة . أو أنك فار من وجه العدالة ، أو أنك هارب من اللومان والعياذ بالله !

ولقد يقع أن يعتريك أحدهؤلاء الشحاذين «المودرن» فى دارك ، أو فى مثوى عملك ، أو فى المقهى ، إذا كنت ممن يثوون إلى المقاهى ، وقد بسط يده وفيها حفنة من الدراهم ، ويباديك بأن ما فى يده هو أقصى ما فى جهده من قسط المدرسة ، وأنت أبر وأكرم من أن تدع الولد يطرد من المدرسة ويحرم نعمة العلم فى شىء يسير لا يضرك ولا يتحيف مما أفاء الله عليك من النعم !

ومن أطرف ما سمعت ، والعهدة على الراوى ، أن هذا الشحاذ الغيران على تعليم ولده وتثقيفه قد لا تكون فى يده هذه المصيدة ، ولكن بها المائة والخمسين قرشاً ، والمائة والسبعين التى تقتنص باقى القسط فيستعيرها من بعض رصفائه ، كما كان فساد أولاد البلد يستعيرن من الجارة الغربال والمعجن (ماجور العجين) على أن يرد إلى أصحابه بعد قضاء الحاجة منه !

ولقد حدثنى من لا أشك خبره ، أنه كان ذات يوم ساعياً مجداً فى الطريق ، فلجمه رجل من هؤلاء يعرفه فركض خلفه حتى أدركه ، وحلف له بكل محرجة من الإيمان أنه قد مضى عليه وزوجه وأولاده الخمسة ستة أيام ماذاق أحد منهم لقمة واحدة ، فقطب صاحبى وجهه واصطنع الجد ، وقال فى حدة وعنف : اسمع ياهذا ! إننى إذا أطعمتك

وأهلك وولدك أكون أكبر مجرم فى العالم . فقال له الرجل : وكيف ذلك ؟ قال : أنت تعلم أننى لن أعولكم أبد الدهر ، وكل مايسعنى هو أن أمدكم بثمن وجبة أو وجبتين قال الرجل : ولسنا نطمع فى أكثر من هذا . فقال صاحبي : أبعد أن عانيتم فى طريق الموت جوعاً ماعانيتم ، حتى لم يبق بينكم وبينه إلا ساعات معدودة تبلغكم نهايتها الراحة الكبرى من هذه الحياة الأليمة ، أردكم إلى الحياة ثانياً لتعانوا فى طريق الموت ماعانيتم ، وتعاودوا هذه الآلام التى جازت بكم ؟ أفصدقت أنى إن فعلت أكون أكبر مجرم فى العالم !

ومن أعجب مايذكر فى هذا الباب ، أنه فى إحدى العشايا من الأسبوع الماضى ، قد اعترضنى فى بعض الطريق رجل لا يخلو سمته من تجمل ، وثيابه من تأنق وحلف لى بكل مؤثمة من الايمان ، أنه قد احتسب ولده فى الصباح الباكر ، ولايزال مسجى فى البيت لأنه لم يجد نفقة تجهيزه ودفنه . وأسرع ، تأكيداً لقوله ، فدس فى يدى ورقة ، فإذا هى ترخيص بدفن « فلان » ولم يرعنى إلا أن تاريخ هذا الترخيص يرجع إلى أكثر من ستة أشهر !

حقاً لقد راعنى وهالنى ، وكاد يذيب كبدى أن تظل جثة هذا الغلام المسكين رهن البيت هذه المدة الطويلة . ومن يدرى فعلها تظل كذلك مدة أطول ؟ وانطلقت لوجهى وأنا ألعن بلسانى وقلبى قسوة هذا الانسان ، حتى على الأموات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

بعيد، فأنى الآن أستطيع، بدورى، أن أحلف فى غير إثم
ولا حرج أن ما قدم وتقدم من الإسكندرية فاستقل الطيارون
بطرحه، ولا كان وطنى اللذين حل القسط من نفقات تعليمه،
من علمنا غير اليتامى وأبناء الفقراء بالمجان أو بغير المجان،
ولا هكذا لزوجة ولا أخت ولا أولاد جياع أو غير جياع، ولا لوالد
طاعن ولا من الأحياء الخ ..... إن هي إلا شهوة التبطل
فى مواصلة اللذات وإدخال المرح على النفس بشتى المكيفات
أولئك على حساب العاملين، وقد يكون فيهم القليل المكدود
يكد لهم من جبينه ورهقه الشح على الأهل والولد، وقد
يكون فيهم من أخرجه للمعروف بصلة المحتاج من ذوى القربى،
للكسب هطالًا البخيل المحروم!

ألا لكم أيها الباذلون لن تعلموا تعاقر الشح مهما يجهدكم الشح،
ويجهد أنفسكم عن الإنفاق على الأهل والولد، وألا تبسطوها
لمحتاجين من ذوى القربى أو تمدوها بالمعروف البخيل المحروم، وإن
ما تكنزونه بالشح والكد يجب أن تحفظوه فى أيديكم عامة
مستفيدا من يليكم حتى إذا أوقعتها الصادقة على أحدكم عجز
حبس لأن المتلفين أسرع فدفعه إليه غيرا ما جرر ولا مشكورا

الكذب الفني

لا شك في أن الكذب يعد من الرذائل في كل زمان وفي
مكان بل لا شك في أنه من أخبث الرذائل جميعاً ، بل لا غرو
من يذهب إلى أنه أخبث الرذائل جميعاً .

ألست أسوق هذا الحديث درسا في الأخلاق ، فأشرح
الصدق ومحاسنه ، وأورد مقابح الكذب ومآثمه ، فذلك
مفروغ منه من الأزمان الطوال .

وإنما أريد أن أتحدث في هذا حديثا يسيراً لعله يجدي
قصدت إليه بإنشاء هذا المقال .

وبعد ، فأنت خبير بأن من يأخذ نفسه بفضيلة الصدق و
عليها لسانه ، تراه ، يتأثم من مقارفة الكثير من الرذائل ، ويح
من إتيان ما يعيب الرجل المربي : ذلك لأنه يخشى إن هو
الوقوع بين أمرين خيرهما شر ، وأحلاهما مر ، وهما التورط
الكذب ، وقد علم أنه رذيلة الرذائل ، وإما الصدق الذي يكش
من أمره ما لا يحب أن يصله الناس به ويعهدوه عليه .

أما من راض نفسه على الكذب ، وأسلم زمام لسانه
الرذيلة ، فهنا ، ولا ريب ، من وطن نفسه على مقارفة ما يشاء من ال
ومعاطاة كل ما يلذه من المآثم ، مستمدا الخلاص من الكذب

لا ينصب معينه ولا ينضب مدده ، غافلا عن أن جعل الكذب ،
قصير ، وأنه بحسب المرء أن تحصى عليه كذبة ، ثم كذبة ،
ما الناس كذابا لا يصدق أبدا ، ولو صدق ، ولا ينطق
لقا وإن نطق !

من الجهة الفردية . أما من جهة المجموع ، فالأمر أجل
وأرجو أن تستحضر فى ذهنك الآن قضية مسلمة سهلة واضحة
نظام الجماعات كله قائم على صحة النقل ، وفرض صحته ،
ان المتحدث مترجما عما فى نفسه أم راويا عن غيره . على
نظام الجماعات فى كل زمان وفى كل مكان ، إذ أن الأصل
فى المتكلم ، كما أن الأصل أن يصدق السامع ، وعلى هذا
تجرى المعاملات بين الناس فى مختلف الأسباب . وكذلك
أن الجماعة ، ويقوم التعاون بين الأفراد على الاصطلاح
ياة ، بحيث ينتظم منها وحدة يكون الأفراد منها بمنزلة
فى جسم الانسان .

فرض أن جماعات شاع فيها الكذب ، وقل فيها الصدق ومطابقة
الواقع ، فان مما يلزم هذا ويتبعه فورا أن يسود التكذيب
فلا يصدق أحد أحدا أو لا يكاد يصدقه ويركن إليه قوله .
ترى ، ماذا يكون شأن الجماعة فى هذه الحال ؟ وكيف ينهض
... المشتركة ، وكيف يتم التعاون بين الأفراد ، والحياة
... إلا هى تعامل وتبادل وتقارض . ومدار

هذا كله الثقة العامة ، فإذا تقلصت هذه الثقة ، والعياذ بالله ، انهدم
كيان الجماعة ، وأصبح بنيانها الشامخ ، أنقاضا على أنقاض !

هذا والكذب على قبحه قد يسوغ في بعض المواطن إذا دعت
إليه ضرورة . والضرورات ، كما قالوا ، تبيح المحظورات . وشأن
هذا شأن غيره ، فإن الضرر الكثير لا يخلو من نفع قليل ، و
الكثير لا يخلو من شر صغير . بل لقد يكون الكذب محمودا في
بعض الأحيان .

ومن المواضع التى يسوغ فيها الكذب ، الكذب على الم
إذا لم يكن من ذلك بد لتسكين ثورة نفسه ، والترفيه عنه ، وإدخال
السرور عليه . ومن تلك المواضع الكذب للإصلاح بين الزوج
أو بين الصديقين ، على ألا ينجم عن ذلك ضر .

ومن المواضع التى يحمد فيها الكذب ، بل التى ينبغى فيها
وتعمده والإلحاح فيه ، الكذب في مكايد الحروب وخدعها
الصدق في هذا ، حيث يستغله العدو ويسلك منه إلى الظفر ، عا
بالخيانة والإجرام . على أن من الناس من لا يأذنون لأ
بالتوريات . وقد قيل : في المعاريض مندوحة .

وعلى الجملة ، فإننا نستطيع أن نشبه الكذب بالسم ،
كان في طبيعته القتل والفتك ، فلقد يصلح بعضه في شفاء
عابر الأسقام في بعض الأحوال !

وبعد ، فما أحوج الناس إلى [illegible]

الكذب نفسه باختلاف طبائع الكذابين. ومن أهم ما يدعو إلى الكذب، وفي الصغار على وجه خاص، الخوف والتخلص من المسئوليات. ومن أهم ما يدعو إليه فيمن ارتفعت بهم السن، على وجه خاص أيضا، حب الظهور بألوان البطولات الزائفة لا ينفق في سبيلها شيء من جهد أو مال، أو استهداف لخطر، أو تعرض لأذى من أي نوع كان. وقد يدعو إلى ذلك حب التجمل للناس، واستلابهم، والظهور بالإسراع إلى قضاء حوائجهم.

ومهما كان الأمر، فإن الكذب كثيرا ما يضحي غريزة وجبلة، يقصد إليه من ابتلي به في غير ما رغبة، ولا رهبة؛ ويصطنعه في غير ابتغاء منفعة أو دفع مضرة. بل لقد يتقول هذا وهو يعلم أنه يضره ولا ينفعه. وإذا عرفت غلبة العادة التي تضعف الطبع وتصل بالغريزة، عرفت أن مثل هذا معذور ما دام الأمر كذلك أو يعد. فالحديث في الكذب وقبحه، والكذبة وإثمهم، شيء طويل الذيل غير طائل. وما للكذب المعتاد، أعني مجرد رواية غير الواقع، سقنا هذا الحديث، وإنما سقناه لغرض آخر جليل، نحب أن نفاجأ به مطلع إبريل!

والأمر أن تعلم أن من الكذب كذبا فنيا. وإني أعني هذه الكلمة بكل ما تحمل من معنى، بل إني لأمضي إلى أبعد من هذا فأزعم أن الكذب الفني، مما يمكن أن يضاف بحق، إلى الآداب

ه الفنون الجميلة ! ويوضع فى صفها . وينظم فى سلكها ، إذ
يقصر عما يعطيك النحت أو التصوير أو الموسيقى من الأنس
وراحة النفس ، وما تثير فيك ، فى بعض الأحيان من الطرب ،
وتبعث من الأريحية ، بل ما تذكى من حسك ، وتنفذ من فطنتك ،
نعم ، هذا اللون من الكذب له فن جميل ، له كل ما للفنون
من رائع الأثر ، وبالغ الخطر ، هو فن جميل ، لا يجيده ولا يبرع
إلا من رزق الطبع وأوتى الموهبة ، فإذا تكلفه من لم يؤت ذلك
ع سمجا بارداً ثقيلا كشأن سائر الفنون الجميلة فى هذا ، سواء
واء .

وأول ما يبنى عليه هذا الفن أن الاختلاق والتزيد فيه لا يضر
، ولا يؤذى أحداً على أنه بالغ الغاية من الإعجاب والإطراف
لإضحاك . ولعل من مميزاته الواضحة أنه لا يحاول قهرك على التسليم
أمر واقع لا ريب فيه ، بل إنه ليعرض نفسه عليك عرضا
ا ، وقد يتكىء فى معرضه على يمين متجلجلة متخلخلة ، ولك فى
ية حكمك فى الرد أو فى القبول .

وهذا الكذب الفنى ليس ابن اليوم ، ولا ابن الأمس القريب
ه قائم معروف ، وأصحابه المبرزون فيه معروفون كذلك من
د البعيد . ومن ذا الذى ينكر أبا حية النميرى مثلا أو ينكر
شايم . ومن ذا الذى يزعم أن صنعة هذا الرجل مما يستطيع

أن يتكافه من شاء من العالمين ؟

أليس من التحف الفنية الجميلة قوله يحدث عن نفسه : سنح لى ذات يوم غزال فرميته بسهم ، فتيا من الغزال فتيا من السهم وراءه ، فتياسر الغزال فتياسر السهم وراءه . وما زال ، فى عدوه ، يراوغ السهم بالتيامن مرة وبالتياسر أخرى ؛ والسهم يلاحقه كذلك ، حتى أدركه ببعض الجبانات فصرعه !

ولا شك أن من القطع الفنية الرائعة ما حدث به هذا أبو حية قال : عن لى ظبي فرميته بسهم ، فانطلق الظبي وانطلق السهم وراءه ، ثم ذكرت بهذا الظبي حبيبة لى فعدوت وراء السهم حتى قبضت عليه قبل أن يبلغه !

وإذا كانت حكاية القزان والكرنية أو السمكة لا يزال لها رونق فى بعض الأسمار ، فاعلم أن هذا المعنى مسبوق من العصر القديم . قال الأصمعى : قال الخليل بن سهل : أعلمت أن أطول رمح رستم كان سبعين ذراعا من حديد مصمت (١) فى غلظ الراقود (٢) ، فقلت ها هنا أعرابى له معرفة ، فاذهب بنا إليه لحدثه بهذا . فذهبت به إلى الأعرابى فحدثه . فقال الأعرابى : قد سمعت بذلك ، وبلغنا ، أن رستم هذا كان هو واسفنديار أتيا لقمان بن عاد بالبادية ، فوجداه نائما ورأسه فى حجر أمه ، فقالت لهما : ما شأنكما ؟ فقالوا : بلغنا

(١) مصمت : لا جوف له . أو كما تقول العامة : صب .

(٢) الراقود : الدن الكبير (برميل) .

حدثنا الرجل بأنهما ، فتعجبنا من كلاميهما ، فقضينا
كانا في أصبهان ، قبرهما اليوم بها . فقال القائل : ويحك
الله ما أكذبك ! قال : يابن أخي ما بيننا من شيء إلا الدهر دون
الدهر !

ومن أبدع روائع التفاخين (١) ، ما روى أن عاملاً في روسيا
في مصنع لتقديد اللحم ، لقى فرنسيا يعمل في بلاده في مثل هذا
المصنع ، فجعل كل منهما يكاثر بصنعه ، ويصف بعظمته وقوة آلاته
حتى قال الروسي : إن مصنعنا تساق إليه قطعان الخنازير من جهته الخلفية
فلا تلبث بضع ثوان حتى تخرج من الناحية الأخرى لحوما مقددة
معبأة في العلب ، عليها اسم المصنع وشعاره !

فقال الفرنسي : وما هذا ؟ فإن مصنعنا ليزيد على ذلك بأنه إذا
خرج بعض العلب فاسداً رددناه ثانيا فخرجت من الناحية الأولى
خنزيرا حياً سويا !

ويقبل هذا ما قيل من أن فرنسياً أقبل على صاحبه الروسي
ويحدثه عن شدة البرد في بلادهم قال : خرجت في عز الشتاء
[illegible] إلى إحدى الغابات ، فاعترضني أسد ، فأسرعت وتسلقت شجرة
[illegible] ولكن خنجري قد سقط [illegible]

(١) التفاخين (بتشديد الفاء) : المدعي [illegible]

ضاً إلى جذع الشجرة فى ارتصادى وترقب افتراسى . ومن
ف قطر من ماء ما لبث أن انعقد ، من عظم البرد ، قضيباً
ناولت به الخنجر وتدليت فشققت به صدر الأسد .
له صاحبه الروسى : وما ذاك ؟ إن هذا ما يكون عندنا فى
ط ! أما إذا كان الشتاء وخرج الناس فى الصباح الباكر لطياتهم
ضهم على بعض بالتحيات المعتادة . ولكن الكلام ينعقد على
فلا يخرج منه حرف واحد ، فإذا طلعت الشمس وخفت
د ، رأيت آفاق الجو كله تتصايح ، « صباح الخير — أسعد
ك — أرجو أن تكون بعافية — صحتى جيدة وأنت —
؟ — الحمد لله — صاحبك التوفيق الخ . . . »

د فلقد كنت أحب أن أتحدث عن عباقرة الفن الحديث
دامى ، ومن لا يزالون قائمين فى الحياة ، وأعرض لخواص
هر ما جاءوا فيه من الطرف ، لولا أن الكلام قد طال .
ى العمر فسحة فلعلنا موفقون إلى هذا فى إبريل المقبل
له

فهرس

فهرس